محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة ابتسام مرهون الصفار ، وديوان مالك بن الريب

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

مالك بن الريب :

اسمه ونسبه :

مالك بن الريب بن حَوْط بن قُرط بن حسل بن ربيعة بن كابية بن حُرْقُوص بن مازن بن عمرو بن تميم[1] ، وكنيته أبو عقْبة[2] ، وأمه شَهْلة بنت سَنيح بن الحُرّ بن ربيعة بن كابية بن حرقوص بن مازن[3] . وقد أشار إليها فى بعض أبياته عند ما أحَسّ بالموت :

تُسائل شَهْلةُ قفّالها ... وتسأل عن مالك ما فعَلْ
ثوى مالك ببلاد العدوْ ... وتَسفى عليه رياح الشّمل
لذلك شَهْلة جَهّزتني ... وقد حان دون الإياب الأجل

وأشار إليها فى يائيته المشهورة .

قصيدة وتحليل

ولابد أن نقف عند قصيدة تعد من روائع قصائد رثاء الذات في أدبنا العربي، أنها قصيدة مالك بن الريب الشاعر البدوي الذي أحسَّ بدنو أجله وهو في جيش الفاتحين في إحدى قرى خراسان قال :

١- ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً
بجنبِ الغَضا أُزجِي القلاصَ النواجيا[٥٦]

٢- فليتَ الغضا لم يقطعِ الركبُ عرضَه
وليت الغضا ماشى الركابَ ليالا[٥٧]

٣- لقد كان في أهلِ الغضا لو دنا الغضا
مزارٌ و لكنَّ الغضا ليس دانيا

٦- دعاني الهوى من أهل ودي وصحبتي
بذي الطَبسين فالتفتّ ورائيا [٥٨]

٧- أجبتُ الهوى لَما دعاني بزفرةٍ
تقنَّعتُ منها -أنْ ألام- ردائيا

٨- أقولُ وقد حالتْ قرى الكُردِ بيننا
جزى الله عَمرا خير ما كان جازيا

٩- إنِ الله يرجعْني من الغزو لا أُرى
وإنْ قلَّ مالي طالباً ما ورائيا

١٠- تقولُ ابنتي لما رأتْ طولَ رحلتي
سفارُك هذا تاركي لا أبا لِيا

١١- لعمري لئن غالتْ خراسانُ هامتي
لقد كنتُ عن بابي خراسان نائيا [٥٩]

١٢- فإنْ أنجُ من بابي خراسان لا أعُدْ
إليها وإنْ منيّتموني الأمانيا

١٣- فللـه درّي يومَ أترك طائعا
بنيٌّ بأعلى الرقمتين ومالِيا

١٤- ودرّ الظباءِ السانحات عشيةً
يخبِّرْنَ أني هالكٌ من ورائيا[٦٠]

١٥- ودرُّ كبيريٌّ اللذين كلاهما
عليٌّ شفيقٌ ناصِحٌ لو نهانيا

١٦- ودرُّ الرجالِ الشاهدين تفتُّكي
بأمريَ إلاّ يقصروا من وثاقيا

١٧-ودرُّ الهوى من حيثُ يدعو صحابتي
ودرُّ لجاجاتي وَدُّر انتهائيا

١٨- تذكرت من يبكي عليٌّ فلم اجد
سوى السيفِ والرمحِ الرديني باكيا

١٩- واشقرَ محبوكٍ يجرُّ عِنانه
إلى الماء لم يتركْ له الموتُ ساقيا[٦١]

٢٠- ولكنْ بأكنافِ السّمينةِ نسوةٌ
عزيزٌ عليهنَّ العشيةَ مابيا

٥٦- وما كانَ عهدُ الرّمل عندي وأهله
ذميماً ولا ودّعت بالرّمل قاليا

٥٧- فمنهنَّ أمي وابنتايَ وخالتي
وباكيةٌ أخرى تهيجُ البواكيا[٧٤]

التحليل :

قائل القصيدة هو الشاعر مالك بن الريب من بني مازن نشأ في بادية بني تميم بالبصرة، بدأ حياته مع الفتاك واللصوص، ثم مسك -كما قيل - فامنه بشر بن مروان، ولما رأه سعيد بن عثمان بن عفان أعجب به لمروءته وفروسيته، وينقل لنا القالي محاورة جرت بينهما:

قال له سعيد: ويحك مالك؟ ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداء وقطع الطريق ؟

قال : أصلح الله الأمير، العجز عن مكافأة الأخوان .

قال : فإن أنا أغنيتك واستصحبتك ؟ أتكف عما تفعل وتتبعني ؟

قال : نعم، أصلح الله الامير، أكفُّ كأحسن ما كفّ أحد، فاستصحبه، وأجرى

عليه خمسمائة دينار في كل شهر، وتعد قصيدته اليائية هذه من روائع الشعر العربي، فهي أنموذج فني عال في رثاء النفس، وتصوير الأحاسيس بدنو الأجل.

وقد قيل إنه قالها حين حضرته الوفاة، وقيل انه قالها قبل موته بسنة [٧٥]، وفصّل بعضهم في سبب وفاته. [٧٦] وذكر ابن عبد ربه إنه حين خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان، وكان يوما ببعض الطرق أراد أن يلبس خفه، فإذا بأفعى في داخلها فلسعته، فلما أحسّ بالموت استلقى على قفاه، ثم انشأ يقول [٧٧]. ويبقى المهم في هذه الروايات أن الشاعر قال القصيدة وقد أحسّ بدنو أجله.

الأبيات ١-٥

بدأ الشاعر قصيدته بالتشوق إلى ديار أهله وأحبته، وتمنى لو أنه يستطيع أن يبيت ليلة فيها، يمارس حياته الاعتيادية، يسوق الإبل، شأنه شأن فتيان قبيلته، ويشتد شوقه الى تلك الديار فيبرز اسمها الغضا بشكل إيقاع مؤلم موجع من خلال تكرار اللفظ خمس مرات في الأبيات الثلاثة الأولى، وهو يتمنى أن يكون الغضا قريبا منه ليزوره، أو أنه لم يبرح الغضا، ولم تقطعه ركاب المسافرين، وحين يشعر إنها أمنية بعيدة يحاول اقناع نفسه وتذكيرها بأنه هو نفسه قد اختار البعد عن ديار أهله، حين اختار طريق الهداية، وانخرط مع جيش الفاتحين. وقد ترك تكرار الغضا ست مرات إيقاعاً مكثفاً لحالة الحزن والأسى وتذكر الديار.

وهنا يصور الشاعر الأبيات من ٦-٩ خلال لوحة فنية جميلة ما تركه تذكر أهله وحنينه إليهم من أثر في نفسه، لقد أثيرت عواطفه ودمعت عيناه، واستحيا من موقفه فحاول اخفاء دموعه بأن تقنع بثوبه، وصحب هذا المشهد تصاعد زفرة عالية تظهر حزنه وتشوقه. وحين يحس الشاعر بوطأة البعد والفرقة والغربة يعاهد نفسه إلا يغادر دياره إن سلم من هذه الرحلة، وانه سيقنع بالقليل الذي عنده.

الأبيات ١٠-١٧

إن من يكون في أرض غريبة بعيدة عن أهله، ويتشوق إليهم يتذكر في لحظات بعض مواقف الحب والمودة التي تربطه بهم، والتي بقيت راسخة في مخيلته، فابنته تحنن

قلبه لئلا يبعد عنهم، خشية أن يهلك ويتركها يتيمة، ويتعجب من نفسه كيف اختار بإرادته ترك دياره، كما يعجب من قدرته على مفارقة أبويه الكبيرين، ويتساءل بعد ذلك كيف استطاع البعد عن أهله وإخوانه ممن كانوا يشهدون أيامه ونشاطه. وهذه الأبيات صور رائعة للإحساس بالأبوة والبنوة معا والارتباط بالأهل والديار والحنين إليهم.

الأبيات ١٨ - ٣٣

هنا ينتقل الشاعر واصفاً حاله وهو يخشى دنو أجله، فإذا كانت صور أهله الجميلة وذكرياتهم تتراءى في ذهنه فانه سرعان ما يعود إلى الحديث عن غربته، ماذا يحدث له إنْ أجله حان فيها ؟ لن يبكي عليه أحد سوى سلاحيه اللذين لازماه دائما، سيفه ورمحه، وفي هذه الصورة إشارة رائعة إلى فروسيته وشجاعته، لا يبكي السيف إلا لفراق الفارس البطل، ويشاركهما في البكاء فرس أصيل كان رفيق الشاعر في المعارك وكان شاهدا على بطولته وبلائه، وإنه لن يجد نداً لمالك – بعد وفاته – يحل محله ويأخذ بعنانه الى الماء، فكيف بمن يصحبه في ساحة المعركة؟ أنه أسف البطل على مفارقة حياة البطولة والفروسية.

وقد أكد الشاعر هذه الصورة مرة أخرى حين خاطب صاحبيه في البيت ٢٨ بان يحفرا قبره بأطراف الاسنة، مخالفاً ما هو معروف من حفر القبور بادوات الحفر المتداولة، لأنه فارس مقاتل، فقبره يجب أن يحفر بما يليق بمكانته وحياته، ومع هذا فإنّ ألمه على ما سيؤول إليه حاله إذا فارقت روحه الجسد كبيراً، هذا الألم يصور له حاله، وهو يجر إلى مثواه الأخير، فيذكّر صاحبيه بأنه كان في حياته أبياً صعب القياد، فارسا يكر على الخيل اذا أدبرت، ويسرع إلى الحرب إذا اشتدت. وبذا يعدد لنا مالك مآثره وبطولاته مما يبعد نفسه عن الجزع لدنو الأجل.

أما في ديار أهله فان الشاعر يسرح بمخيلته مصورا ما سيحدث حين يبلغ نعيه قومه، فتبكيه نسوة يعز عليهن فراقه.

لقد عُرف الرثاء على أنه تعداد لمآثر المرثي ومفاخره، ومالك هنا هو الراثي والمرثي معا لذا يعدد مآثر نفسه، فهو جَلْد في الحرب، عفيف في السلم، لا يشتم ابن

عمـه ولا يؤذيه، وحياته بين يومين يوم يتنعم بالراحة مع صحبه وملاعبة خيله، ويوم يصول ويجول في ساحة الحرب.

الأبيات ٣٤ فما بعدها

يعـود الشـاعر إلى مخاطـبة رفيقيه اللذين يتوقع أن يقوما بدفنه أو تبليغ خبره إلى أهلـه. فيوصـيهما بأن يقفا عند بئر السمينة حيث مجتمع بنات قومه، لينبئهن بأنه مات غريـبا، وقـد أُهيل عليه التراب في أرض بعيدة مقفرة، فيتخيل حاله وهو مفرد غريب وحيد حين يتركه رفاقه، ليبلغوا خبر وفاته لأهله فيبكي على نفسه متذكرا مشاهد من حـياته اليومية في ديار أهله، وكيف سيفتقدونه وأولهم أمه، ويتساءل تساؤل المقر بأنها سـتبكي علـيه كمـا أنهـا لو ماتت قبله لاشتد بكاؤه عليها. ويوصي أمه لتزور القبور وتذكر موته النائي الغريب.

ثـم تـلح عليه مرة أخرى صورة بلوغ خبر نعيه الى مسامع اهله، وكيف يصيبهم الحزن، فتنفلق أكبادهم، وتبكيه الباكيات، ويتخيل هذه الصورة فيرسمها ببعدين، بعد احبـته وأهلـه، وقد بلغهم نعيه، ومع شدة حزنهم وبكائهم عليه تتمنى نسوة من أهله ان لـو كـن قريـبات مـنه لفدّين الطبيب المداوي علته، ويتخيل بينهن وجه أمه وابنتيه وخالـته، وامـرأة رابعـة لم يسمها وانما وصفها بانها تهيج البواكيا، وهذه قد تكون أي امـراة مـن قومـه أحزنها فقده وقد تكون زوجه، فهي تعول، وتبكي، وتهيج الباكيات إذا هـدأ بكـاؤهن. أمـا البعد الثاني للصورة فهو وصف قبره المفرد الغريب في أرض مقفرة موحشة غريبة.

وبعـد، فـإن هـذه القصيدة وان كانت لا تصور أحداث الفتوح والجهاد إلا أنها منبـثقة مـن ظروفها، إذ أن انخراط الشاعر في جيش سعيد بن عثمان بن عفان وسيره في أراض غريـبة عـن ديـاره أدخلـت في نفسـه مشـاعر الشـوق والحـنين، وتجسـدت أحاسيسـه بشـكل مـثير للعاطفـة، حين شعر بدنو أجله مصوراً لنا الغربة بكل الامها ووحشـتها، وجسـد لنا أيضا الحنين الى الأهل والديار بكل ما يحمله من مشاعر الرقة والحب والالفة، وعبر عن هذين الموقفين أروع تعبير، جعل القارىء يتخيل من خلال

القصـيدة صورة الفارس البطل المقاتل، وصورة المحب المتشوق الى أهله وموطنه. ومع ذلك نلاحظ خلو القصيدة من كل ما يتعلق بمعاني الفتوح والجهاد، ولم يحاول الشاعر ان يسلي نفسه بالأجر والثواب كما يتوقع، وكما فعل المجاهدون، ولم ينقل لنا أمله في عـده شـهيداً، أو رغبته في الشهادة كما فعل عبد الله بن رواحة، لكن الملاحظة ليست غريـبة كـل الغـرابة اذا تذكرنا شخصية مالك بن الريب قبل انخراطه في جيوش سعيد بـن عـثمان، اذ لم يكن له رابط ديني قوي بالجهاد، والمجاهدين، وكل ما حققه له نسكه وتوبـته هـو انخـراطه في هـذا الجيش، فهو يختلف عن حال المجاهد الذي صرف نفسه وحياته للجهاد بفكره وسلوكه.

وتـبقى صـورة مالك بن الريب الإنسان الذي أحس بدنوّ أجله، فصور مشاعره الرقيقة إزاء موطنه وحنينه إلى أهله وأحبته.

محاضرة الأدب الاسلامي

اغراض شعرية قديمة ومتطورة(المديح)

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية

كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

اغراض شعرية قديمة متطورة

اذا جاز لنا ان نسمي شعر الدعوة والجهاد وشعر الفتوحات الاسلامية اغراضا شعرية جديدة فرضت معانيها على الشعراء ليعبروا من خلالها عن واقع جديد فان هناك اغراضا تقليدية عرفت قبل الاسلام واستمر القول فيها قرونا طويلة امتدت حتى عصرنا هذا لالشيء الا لانها اغراض متعلقة بجوانب النفس الانسانية ومافيها من رغبة ونوازع مختلفة من حب ووفاء وكره وحكمة او تأمل ... يعبر عنها الانسان بوسائل مختلفة ، واساليب متنوعة في كل زمان ومكان فكانت في الشعر العربي خاصة اغراض المديح والهجاء والرثاء والغزل اغراضا واسعة جديدة قديمة تقليدية ومتطورة في الوقت نفسه وسنحاول ان نتتبع هذه الاغراض لامن حيث معانيها التقليدية وانما من حيث تتبع المعاني الجديدة والافكار التي فرضها ظهور الاسلام بكونه ديناً ونظاماً للمجتمع العربي بأكمله وسنجد ان تطورا كبيرا صاحب هذه الاغراض من حيث معانيها واخيلتها الكثيرة التي بدت متأثرة بالاسلام وبما ورد في القرآن الكريم من معان وصور وأخيلة . مما يدلنا على ان اثر القرآن في الادب لم يكن محصورا في الاغراض الجديدة او المعاني المستحدثة وانما تجاوزها الى الاغراض التقليدية سواء في المفردات اللغوية المستعملة او المعاني التي اكدها الشعراء . وهذا امر طبيعي ينسجم مع طبيعة المجتمع العربي الذي اصابه تطور جذري كبير وجد في افكار الناس وسلوكهم فجرى باللغة الشعرية ان ينالها جزء من هذا التطور يتمثل بدخول المعاني الاسلامية الجديدة الى صور الشعراء وبروز الفاظ جديدة ماعرفتها العربية قبل ظهور الاسلام بدلالتها المستعملة في القرآن الكريم كالفاظ الجهاد والثواب ، والصوم والصلاة والزكاة(٣٥٥) الى غير ذلك من مفردات وصور سترد في ثنايا عرض معاني الاغراض الشعرية . وسنحاول ان نختم كل غرض من هذه الاغراض بمتابعة سريعة لما ورد في اشعار العصر الاموي لتكون الدراسة شاملة العصرين في الفقرة الواحدة . من خلال قصيدة شاعر يبرز سمات العصر او الغرض الذي قال فيه.

---

(٣٥٥) ينظر تفصيل هذا في كتاب : اثر القرآن ، د . ابتسام مرهون .

١ ـ المديح

لقد مر بنا توجيه الرسول (ﷺ) للشعراء لتكون اشعارهم غير منافية لمباديء الدين والاخلاق ان لم تكن مدافعة عن الدعوة واعية لها فكل ماوافق الحق فهو حَسن ، ويندرج ضمن الحق كل شعر انساني تغنى به الشعراء بالمثل والاخلاق العليا بغض النظر عن زمن قائله او مكانته ونجد في الحديث الشريف مايبين مكانة الشعر الجيد الهادف «الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها وتسل به الضغائن من بينها»(٣٥٦) والمديح احد وسائل والمديح عن حياة البدوي ، كما انه وسيلة خيرة اذا احسن استخدامه لترقيق النفوس وتهذيبها واصلاح ذات البين بين ابناء القبيلة الواحدة او القبائل المتنافرة فمديح الشاعر غير التكسبي يكون وسيلة جادة لرفع الضغائن والاحقاد ويدخل ضمن هذا مديح زهير بن ابي سلمى لهرم بن سنان وتمجيده للدور الانساني اذي قام به هذا الممدوح في حقن دماء قبيلتين طال امد تحاربها وقتالها . واعجاب الخليفة عمر بهذا الشاعر لايتجاوز الاعجاب بدوافع القول الصادقة لدى زهير لايقول حتى في حالة اخذه عطاء من هرم المهم انه خلد مآثر الخير التي قام بها هرم وخلد دوره الانساني في محاولته السلمية المشهورة . وبذا يكون المديح اذا صدقت نوايا الشاعر المادح وسيلة لتمجيد الاخلاق العليا والمثل القويمة التي يرتضيها المجتمع، وبذا نجد هذا الغرض مستمرا في عصر صدر الاسلام خارجا عن نطاق المديح الشخصي او التكسبي الى المديح الذي يجعل من الممدوح اطارا لقضية عامة وصفاته توكيدا لمبادئ يدعو اليها الممدوح ويحاول الشاعر في تثبيتها واشهارها.

ويدخل في هذا الاطار كل الشعر الذي قيل في مديح الرسول (ﷺ) فهو ليس مديحا لشخص الرسول (ﷺ) وذاته قدر ماهو مديح لمكانته ونبوته وتوكيدا للرسالة السماوية التي بعث لنشرها بين الناس ولهذا اعجب الرسول (ﷺ) بقول الشاعر:

فثبت الله ماأعطاك من حسن

تثبيت موسى ونصرا كالذي نصروا(٣٥٧)

---

(٣٥٦) العمدة ٢٨/١

(٣٥٧) ديوان عبد الله بن رواحة /١٩٤

لانه دعا له في اطار النبوة التي جاء بها الرسول الكريم ان يثبته الله على اعدائه كما ثبت النبي عيسى ونصره على اعدائه، فالله سبحانه وتعالى هو مرسل الانبياء وهو مثبت اقدامهم على مايدعون إليه من عبادة التوحيد، واذا كانت معاني الشعر في المديح قد اصابها التطور مما اضفاه عليها الاسلام من معان جديدة فان المديح بكونه وسيلة من وسائل التعبير عن نفس الشاعر او قبيلته بقي حاملا هذه الرسالة. لقد قضى الرسول (ﷺ) حاجة شاعر هي في الواقع حاجة قبيلته وقضيتها حين نجح شاعر في عرض وساطته واثارة مشاعر المودة والعطف في نفس الرسول الكريم فاستثار عطفه على اسرى قبيلة هوازن بعد معركة حنين بشعر رقيق يستدر عفوه ورحمته فيذكر الرسول (ﷺ) بان مرضعته عن بني سعد من هوازن، وانها واخواتها ينتظرن عفوه عن قومهن فيعفو الرسول (ﷺ) عن الاسرى ويحتذي المسلمون حذوه بأن يردوا الغنائم التي غنموها في هذه المعركة الى اهلها.

ان حفظ الاشعار التي تتغنى بالخلق القويم يقوم النفس ويهذبها ووجدنا مثل هذا التوجيه النبي يدعو الى تربية النشئ في مقولة الخليفة عمر (رضي) «اروا من الشعر اعفه ومن الحديث احسنه ومن النسب ماتواصلون عليه وتعرفون به ، فرب رحم مجهولة قد عرفت ومحاسن الشعر تدل على مكارم الاخلاق وتنهى عن مساويها»(٣٥٨) ونحن نعرف ان المديح اوسع اغراض الشعر العربي ماخلا منه عصر وقلما خلا منه ديوان واذا كان هناك تغيير في هذا الغرض التقليدي في صدر الاسلام فاننا نراه متمثلا في التوجيه العام الذي وجه اليه الشعراء بالالتزام في اشعارهم فكان المديح جزءا من هذا الشعر الملتزم وماعاد مديحا شخصيا قدر ماهو مديح لقضية الدعوة ومديح الرسول (ﷺ) اعلاء لقيم الرسالة السماوية ، واذا كانت منها ظل سائدا في المجتمع العربي الاسلامي انطلاقا من قول الرسول (ﷺ) بعثت لأتمم مكارم الاخلاق» ومكارم الاخلاق التي ارتضاها العربي قبل الاسلام ظلت معظمها - مما لايعارض مبادىء الاسلام - سائدة في المجتمع العربي مضافا اليها قيم جديدة هي مما اضفاه الدين الاسلامي على خلق العربي من سمات دينية كالتقوى ، والايمان الصادق والعدل بين الرعية واداء الفرائض ومالى ذلك من الصفات العليا التي حرص الشعراء المادحون على اضفائها على مدوحيهم ليكسوهم سمات الشخصية المثلى التي تتوافر فيها صفات الخلق العربي القويم وخلق الشخصية الملتزمة بالدين والاخلاق ونجد هذا

(٣٥٨) انظر العمدة ٥٦/١ جمهرة اشعار العرب ٣٦، الاسلام والشعر ٦٢

النفس الجديد في المديح منذ فترة مبكرة من عصر صدر الاسلام حين آمن المسلمون وقرنوا اعجابهم بالنبي محمد (ﷺ) ونبوته وبرسالته التي تنير لهم طريق الهدى . فالطفيل بن عمرو السدوسي يقول بعد ان هددته قريش لاسلامه معلنا ايمانه مادحا الرسول (ﷺ) بانه رحمة للناس :

الا ابلغ لديك بني لؤي
على الشنآن والغضب المرد
بان الله رب الناس فرد
تعالى جده عن كل جد
وان محمداً عبد رسول
دليل هدى وموضح كل رشد(٣٥٩)

والملاحظ هنا ان تغييرا سريعا طرأ في لغة الشاعر اذ استعمل لفظ (عبد) وما تحمله من دلالة الذلة والهوان في عصر ماقبل الاسلام ليطلقها على مديح الرسول (ﷺ) لانها حملت معاني انسانية بعيدة عن معناها السابق اذ لاعبودية الا لله سبحانه وتعالى ويستوى في ذلك البشر جميعا فمحمد (ﷺ) عبدالله ورسوله .

ونجد هذه المعاني الجديدة كثيرة في شعر حسان بن ثابت معددا صفات النبي (ﷺ) فهو خاتم الانبياء ، كرمه الله تعالى بالنبوة وقرن اسمه الى اسمه حين جعل تمام ايمان المسلمين شهادة لااله الا الله وان محمدا رسول الله ، وانه بعثه هاديا لهذه الامة فانذر الناس من مغبة الكفر وخوفهم النار ورغبهم بالايمان وبشرهم بالجنة وهكذا يتحول مديح الرسول (ﷺ) بيانا لمبادئ الاسلام التي جاء بها الممدوح وهو النبي عليه الصلاة والسلام :-

اغر عليه للنبوة خاتم
من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الاله اسم النبي الى اسمه
اذ قال في الخمس المؤذن اشهد
وشق له من اسمه ليجله
فذو العرش محمود وهذا محمد

(٣٥٩) حسن الصحابة في اشعار الصحابة ٢٩٣/١ .

نبي اتانا بعد يأس وفترة
من الرسل والاوثان في الارض تعبد
نأمس سراجا مستنيرا وهاديا
يلوح كما لاح الصقيل المهند
وانذرنا نارا وبشر جنة
وعلمنا الاسلام فالله نحمد(٣٦٠)

ولحسان قصيدة اخرى لم ترو في ديوانه يمدح بها الرسول (ﷺ) جامعا فيها الاخلاق التي وردت في اماديح شعراء ماقبل الاسلام مع القيم الاسلامية الجديدة لالشيء الا لان هذه القيم انسانية اقرها الاسلام والمجتمع الاسلامي وبقيت مثلا عليا ، فالرسول الكريم موضع ثقة يعتمد عليه في الملمات ، وهو ملاذ الخائفين والمحتاجين يحافظ على الجار اذا جاوره ، كريم يفيض جوده كفيض البحر ، بعد هذه الصفات الخلقية التقليدية يضيف معاني اسلامية في مديحه فهو (ﷺ) المصطفى الذي اختاره الله تعالى لاداء رسالة الاسلام وهيأ له من الملائكة ميكائيل وجبريل لنصراه في الحرب مع المشركين يقول :

ياركن معتمد وعصمة لائذ
وملاذ منتجع وجار مجاور
يامن تخيره الاله لخلقه
فحباه بالخلق الكريم الطاهر
انت النبي وخير عصبة آدم
يامن يجود كفيض بحر زاخر
ميكال معك وجبرئيل كلاهما
مدد لنصرك من عزيز قادر(٣٦١)

---

(٣٦٠) ديوان حسان ٩٧ .

(٣٦١) شعر الدعوة ٢٥٣ من الاصابة ٢٦٤/١

وهكذا نجد كثيرا من القصائد والمقطوعات التي قيلت في عهد الرسول (ﷺ) يمدح فيها الشاعر الرسول مدحا بعيدا عن المديح الشخصي الذي يتناول ذات الممدوح ليجعله فوق غيره الى جعل فكرة المديح جزءا لايتجزأ من الدعوة الاسلامية التي جاء بها فمدح الرسول (ﷺ) هو جزء من شعر الدعوة الاسلامية في هذه الحالة ، وهو جزء من اعلان الشعراء التزامهم بالعقيدة الاسلامية والدين الاسلامي ولانعدم هذا الاسلوب في مديح اشخاص آخرين غير النبي (ﷺ) او حتى في مديح قبائل او جماعات معينة فكعب بن زهير يمتدح الانصار مديحا بعيدا عن القبلية او الاغراض الشخصية التي كنا نعهدها في مديح قبل الاسلام بل هو يمتدحهم من منطلق اسلامي اذ دافعوا عن الرسول الكريم وتبنوا نصرة الدين الاسلامي ، وسلوكهم اليومي مصداق لأسمهم فهم الانصار الذين نصروا الله ورسوله وحياتهم كلها صدق ونسك وتقرب الى الله بقتل الكفار والمشركين :

من سره كرم الحياة فلا يزل
في مقنب من صالحي الانصار
الذائدين الناس عن اديانهم
بالمشرفي وبالقنا الخطار
والباذلين نفوسهم لنبيهم
يوم الهياج وقبة الجبار
يتطهرون كأنه نسك لهم
بدماء من علقوا من الكفار(٣٦٢)

ويستمر هذا الاسلوب في مديح الخلفاء الراشدين اذ تبقى قيم المديح ملازمة لشخصية الخليفة الممثل للدين الاسلامي او بالاحرى الحاكم الذي اختاره المسلمون بسبب توافر مقاييس وقيم اسلامية ، فلا عجب ان نجد ابا محجن الثقفي يستقي من القرآن الكريم وصفا لابي بكر الصديق ليتخذه مادة لمديحه ، فقد وردت آية كريمة تصف هجرة الرسول (ﷺ) من مكة الى المدينة مع ابي بكر (اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا)(٣٦٣) يستقي ابو محجن من هذه الاية وصف الصاحب ليمدح ابا بكر بعناصر اسلامية فهو صديق لانه صدق دعوة الرسول (ﷺ)

(٣٦٢) ديوان كعب بن زهير ٢٥-٣٥ .

(٣٦٣) سورة التوبة ٩/٤٠

وهو الصاحب لانه صاحب الرسول عليه الصلاة والسلام في هجرته المباركة :

وسميت صديقا وكل مهاجر
سواك يسمى باسمه غير منكر

سبقت الى الاسلام والله شاهد
وكنت جليسا بالعريش المشهر

وبالغار اذ سميت خلا وصاحبا
وكنت رفيقا للنبي المطهر

وهذا حجر بن عدي احد اصحاب الامام على صحابي ناصره ولازمه في حروبه ، وعرف حقيقة المواقف السياسية التي جوبه بها الامام على ايام خلافته فيدعو الله ان ينصره لانه تقي مؤمن صادق في دعوته وعقيدته ، وهو مديح اسلامي يمثل بداية المديح السياسي :

ياربنا سلم لنا عليا
سلم لنا المهديا
المؤمن المسترشد الرضيا
واجعله هادي امة مهديا
واحفظه ربي حفظك النبيا
فأنه كان لنا وليا

ويقول في رجز آخر :

هذا علي والهدى حقا معه
يارب فاحفظه ولاتضيعه
فانه يخشاك ربي فارفعه
ومن اراد عيبه فضعضعه
او كاده بالبغي منك فاقمعه(٣٦٤)

(٣٦٤) وقعة صفين ٤٣٢١ ، شعر الدعوة ١٥٢-١٥٣ .

واذا كانت هذه النماذج المرتبطة بشخصية الخلفاء الراشدين تبدو موافقة متشية مع ماعرفوا به من ورع وتقوى وتدين ، فان نهجها يستمر فيما بعد في جميع مدائح الشعراء في العصر الاموي على اختلاف الممدوحين خلفاء او امراء او ولاة او اشخاصا عاديين بغض النظر عن صدق الصفات الاسلامية التي يصفون بها الممدوح او كذبها ، كل ماهنالك اننا نجد الشعراء يستغلون هذه المعاني الاسلامية ليضفوها على ممدوحيهم لعلمهم بانها تشكل المثل الاعلى في نظر الممدوح من جهة والمجتمع من جهة اخرى .

ولابد ان نشير الى القيم الخلقية العربية القديمة التي اقرها الاسلام وردت ايضا في اشعار الشعراء المسلمين مقترنة بصفات المؤمن الصالح ... اما الشعراء الذين قيل عنهم بانهم لم يتأثروا باسلوب القرآن الكريم او مبادئ الاسلام ، فأننا لانعدم وجود قيم اسلامية في مديحهم للسبب السابق الذي ذكرناه وهو كون هذه الصفات قيما جديدة تضفى على مدائحهم قوة نابعة من نظرة المجتمع اليها فالحطيئة مع ماعرف به من سلوك اقرب مايكون الى حياته الاولى قبل الاسلام نجد في بعض اشعاره الاسلامية هذه المعاني الجديدة التي اشرنا اليها ، فهو يشكو حاجته وفقره للخليفة عمر بن الخطاب فيسميه ملكا (وتلك بقايا روح ماقبل الاسلام) ويذكره الحساب ويوم القيامة وان ابناءه في جوع مستمر حتى يوم المحشر(٣٦٥) وفي قصيدته الرائية المشهورة يمدح الخليفة عمر ويستعطفه فيصفه بالامين الذي اختاره الله للبشر :

ماذا تقول لافراخ بذي مرخ
زغب الحواصل لاماء ولاشجر

غيبت كاسبهم في قعر مظلمة
فاغفر عليك سلام الله ياعمر

انت الامين الذي من بعد صاحبه
القت اليه مقاليد النهى البشر(٣٦٦)

---

(٣٦٥) مرت الابيات في مبحث الحطيئة

(٣٦٦) راجع عن الحطيئة مقال الوجه الاخر للحطيئة - مجلة الاستاذ - العدد الاول لسنة ١٣٩٨/١٩٧٨ جامعة بغداد

ومع ان الحطيئة كان يمدح لاجل العطاء كما يهجو لاجل الكسب وتخويف المهجوين من لذع هجائه ، فان له بعض الاشارات التي تبين تأثره بالاسلام ومبادئه فيما يخص العطاء الذي يحصل عليه بسبب المديح فهو يقول مشيرا الى ان العطاء والرزق من الله تعالى :

سيرى اما فان المال يجمعه

سيب الاله واقبالي وادباري(٣٦٧)

واذا كانت هذه المعاني الاسلامية القليلة الواردة في اشعاره لاتشكل وجها ناصعا لاسلام الحطيئة ، فهي بكل تأكيد ترسم بعض الملامح الاسلامية التي بدأت تسري الى نفسه وتؤثر في بعض معانيه ، وفي ديوانه قصيدة يمدح بها ابا موسى الاشعري مديحا اسلاميا بعيدا عن المديح الشخصي الذي يتراءى لنا من خلال قصائد المديح عنده وذلك ان الحطيئة - يذكر ابن سلام(٣٦٨) - دعي الى ان يكتب اسمه فيمن يغزو مع ابي موسى الاشعري فلم يفعل حتى اذا فرغ ابو موسى من تسجيل اسماء المتطوعين نزعت نفس الحطيئة الى الانخراط الى هذا الجيش فقدم على ابي موسى يسأله ان يسجل اسمه فاخبره الاخير ان العدة قد تمت ، ومع ماأشير من احتمال وضع هذه القصيدة على الحطيئة(٣٦٩) فان اسلوبها يوافق اسلوبه الشعري والذي يهمنا فيها هو عناصر المديح التي اوردها الحطيئة فيها فهي عناصر ذات ابعاد اسلامية غير محددة بشخصية الممدوح انما نجد الممدوح جزءاً من صورة كبيرة هي الجيش الاسلامي المتوجه نحو الجهاد ، حيث الايمان الخالص بالله والرغبة في طلب الاجر والثواب في الانخراط بجيش المجاهدين الغازين فالحطيئة في هذه القصيدة لايعدد صفات الممدوح كما فعل في قصائده التقليدية الجاهلية ولايصفه بالفروسية او الشجاعة او الكرم كما يفعل المداح بل يكتفي بالاشارة الى ان الممدوح اذا اراد غزو الاعداء لاتثنيه عن ذلك امرأة مهما بلغت من الجمال والالق .. لان جيشه مسلح بالعقيدة والايمان ، ونفوس المقاتلين تهفو وترنو الى الجنة وثوابها يقول :

اذا قادها للحرب يوما تتابعت

الوف على آثارهن الوف

---

(٣٦٧) نفسه .

(٣٦٨) طبقات فحول الشعراء : ٢٥١

(٣٦٩) ديوان الحطيئة : ٢٢٤

اثـابت الى جنـات عـدن نفـوسهم

ومـابعـدهـا للصـالحين حتـوف(٣٧٠)

ونجد هذه القيم المادحة التي دخلت الى فن المديح بحكم سيادة الاسلام ومبادئه نجدها تستقر عند شعراء العصر الاموي حيث استقر الحكم على اساس الوراثة وليس على اساس الانتخاب او الاختيار كما كان الحال في العصر الراشدي تقول ان الشعراء حاولوا ان يضفوا على ممدوحيهم كل القيم الصالحة في نظر المجتمع المسلم فالفرزدق مثلا يمدح سليمان بن عبدالملك بان الله بعثه عدلا ورحمة للناس كما بعث الله من قبل النبي محمداً (ﷺ) رحمة للامة :

جعلت لاهـل الارض أمنـاً ورحمـة

وبرءا لاثـار الجروح الكـوالم

كما بعث اللـه النبي محمـدا

على فترة والنـاس مثـل البهـائم(٣٧١)

ويبحث جرير عن قيمة اسلامية جديدة ليضفيها على ممدوحيه فيذكر بان همه وغايته ان يطلب رضا الله لذلك تراه يعدل في الرعية ليلقي ثواب الله يوم القيامة :

تطيع الله مجتهدا لترضى

وتذكر في رعيتك المعادا(٣٧٢)

ويرى شوقي ضيف ان شعراء بني امية حاولوا ان يضفوا على ممدوحيهم فكرة الجبرية وهي ان لارأي للناس في اختيارهم بل ان خلافتهم جبر وقدر على المسلمين وبذا يشيعون بين الناس مذهبا لفرقة كلامية لتستفيد منها في تثبيت حق ملكها بين الناس فيقول (فكانوا يتعمدون الاحتكام اليه (الجبرية) في تقرير خلافة بني امية ، اما عن عقيدة ثابتة ، واما من اجل ارضائهم وفي كل مكان في شعر جرير والفرزدق نجد اللجوء الى الجبر في تقرير خلافة الامويين ، وان الله كتب ذلك ولامفر منه ، ولاتبديل لكلماته يقول جرير :

---

(٣٧٠) الديوان : ٦١ وانظر الوجه الاخر للحطيئة ص ١٢٠ فما بعدها

(٣٧١) ديوان الفرزدق ٨٥٢/٢ وانظر ايضا ٢١٥/١ انساب الاشراف ٣٧٥/٥ ، ديوان عمر بن ابي ربيعة : ٢٢٢

(٣٧٢) ديوان جرير : ١٢٠ وانظر ايضا ديوان جميل بثينة / ٢١

نال الخلافة اذ كانت له قدرا

كما اتى ربه موسى على قدر(٣٧٣)

واذا كان ادخال هذه القيم الجديدة في المديح يمثل عنصرا من عناصر التجديد فان هناك عناصر اخرى قيلت في موضوع المديح ولكن من وجهة نظر مخالفة . فاذا كان المداح يقصدون الحصول على جوائز الممدوح وعطائه ، فان هناك شعراء دعوا الى رفض فكرة تأمل العطاء عن طريق المدح لان رزق الانسان غير موكول بعطاء او رضى شخص انما لكل انسان حظه من الرزق في السماء وان الله هو الذي يقدر ارزاق العباد فلم يذلون وجوههم بمدح الممدوحين :

يقول ابو الاسود الدولي :

فـــان مقـــادر الرحمن تجري

بـــارزاق الرجـــال من السماء

مقـــدرة بقبض او ببســـط

وعجـــز المرء اسبـــاب البـــلاء(٣٧٤)

ويقول في ابيات اخرى بان الانسان اذا اراد ان يطلب امرا فيجب الا يسأل العباد عنه انما يسأل سيد العباد وهو الله :

واذا طلبت من الخلائق حـاجـة

فـادع الالـه واحسن الاعمـالا

فليعطينـك مـا أراد بقـدرة

فهـو اللطيف لمـا اراد فعـالا(٣٧٥)

---

(٣٧٣) التطور والتجديد في الشعر الاموي : ٧٩

(٣٧٤) ديوان ابي الأسود : ٨٠

(٣٧٥) نفسه ١٣٣

ويوضح الطرماح هذه الفكرة وهو من شعراء الخوارج - مخاطبا الفرزدق حين رآه ينشد مديحا والناس حوله :

ايهـــا المـــادح العبـــاد ليعطي
ان للـــه مـــا بـــأيـــدي العبـــاد
فـــاســـأل اللـــه مـــا طلبت اليهم
وارج فضـــل المقسم العـــواد(٣٧٦)

ان رفض التكسب بالمال لانه اذلال لنفس صاحبه والدعوة الى توكيد كون الرزق من الله تعالى فكرة ما دخلت فن المديح الا بسبب المعتقد الاسلامي واذا لم يكتب لهذه الدعوة الشيوع فان وجودها بحد ذاته يمثل نقطة تحول في نظرة الشاعر او المجتمع الى المديح التكسبي .

وهكذا نجد تطور معاني المديح واختلاف نظرة الشعراء اليه باختلاف مواقفهم من الممدوح مع استمرار عناصر اخرى تمثل استمراراً لقيم يوافق عليها المجتمع الاسلامي .

(٣٧٦) شعر الخوارج : ٢٠

محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة ابتسام مرهون الصفار ، وديوان عَدي بن الرقاع العاملي

قصيدة عَدي بن الرقاع العاملي وتحليلها

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

عدي بن الرقاع العاملي:

سيرته:

هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع بن عك بن شعل بن معاوية بن الحارث العاملي[1]، شاعر عربي مغمور، نشأ في دمشق من سوريا وسكنها، كان هواه مع بني أمية يمدح أحياءهم، ويرثي أمواتهم، ويؤيد سياستهم، ويتحمس لهم، وبخاصة للوليد بن عبد الملك الذي نادمه ومدحه.

وعدي بن الرقاع سكن الأردن «الحولة» كما أنه نزل المدينة وجال فيها، يكنى أبو داود وقيل أبو دواد، وهو من أشراف بني عاملة، نسبه الناس إلى الرّقاع وهو جد جدته لشهرته بذلك.

يلف الغموض جوانب حياته، ولم تذكر الكتب غير شذرات منها، فتاريخ مولده غير محدد، وزوجته وأولاده مغمورون إلا ابنة واحدة اسمها سلمى كانت تقول الشعر، ولها حادثة مع قوم من الشعراء أتوه ليهانئوه وكان غائباً، فسمعت وهي صغيرة فخرجت إليهم وأنشأت تقول:

تجمعتم من كل أوب وبلدة ... على واحد لا زلتم قرن واحد

فأفحمتهم.

كان أبرص، وهو من حاضرة شعراء الشام لا من باديتهم، ومع ذلك فقد أجاد في وصف الظباء والرواحل حتى اعتبر من أفضل من وصف المطايا علماً أنه أحسن في فنون المديح والنسيب الرقيق اللطيف الخالي من تغزل شعراء الحجاز والعراق، وعدّه بعضهم من أنسب الشعراء.

---

(١) وقيل عدي بن الرقاع بن عصر بن عذرة بن سعد بن معاوية بن قاسط بن عميرة بن زيد بن الحارث بن قضاعة.

وضبط اسمه بفتح العين وكسر الدال وإدغام الياء، والرّقاع بكسر الراء وإدغامها.

قصيدة وتحليل

قال عدي بن الرقاع العاملي يمدح عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم(☆) :

١ ـ لمن رسم دار كالكتاب المنمنم
بمنعرج الوادي فويق المهزم(٣٧٧)

٢ ـ عفت بعد اشباح الانيس كأنما
الشخوص بها خيلان حرض وعجرم(٣٧٨)

٣ ـ توهمتها من بعد ما قد خلا لها
اهلة حول بعد حول مجرّم(٣٧٩)

٤ ـ منازل أتراب تبدلن بعدها
بلاداً فبادت غير نوي مهدّم(٣٨٠)

٥ ـ سمن بغيث رابع فتبعنه
على كل موّار الملاط عثمثم(٣٨١)

(☆) ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي تحقيق نوري القيسي ، حاتم الضامن ١٩٨٧ بغداد صفحة ١٢٨ فما بعدها

(٣٧٧) الرسم : الاثر ، ورسم دار : بقايا اثارها ، المنمنم : المحسن الموشى ، منعرج الوادي ، فويق المهزم : اسما موضعين

(٣٧٨) اشباح جمع شبح ويريد به الشخص ذاته . خيلان جمع خال وحرض : نبت هو الاشنان ، والعجرم : شجر تتخذ منه القسيّ

(٣٧٩) الحول : العام ، مجرّم : تام قد انقضى

(٣٨٠) اتراب جمع ترب وهن اللدّان او البنات في اعمار متقاربة

(٣٨١) غيث رابع : غيث في الربيع ، موار : صفة للفرس والبعير سريع الحركة والملاط الجنب ، والعثمثم الكثير اللحم

٦ ـ طـوال القرى تحكي خطـــاه اذا مشى
تجـاوب احنـاء الغبيـط المقـوّم(٣٨٢)

٧ ـ تخطين بطن الستر حتى جعلنـــــه
على الغرب سير المنتـــــوي المتيم(٣٨٣)

٨ ـ فلمـا تجـاوزن الحصيـدات كلّهـا
وخلفن منهـــا كل رعن ومحـزم(٣٨٤)

٩ ـ دأبن لخيشـوم البيـاض الـذي لـه
من التـاج إكليـل كتـاج المسـوّم(٣٨٥)

١٠ـ مـدحت امير المـؤمنين الـذي اصطفى
لنـا ربنـا فضـلا على كل مسلم

١١ـ بنى الحمـد فيـه فـارتقى في مشرف
رفيـع من البنيـان لم يتثلم(٣٨٦)

١٢ـ فـا في بني حـواء فرع يفـوقـه
بفـاضلـة دون النبي المكرّم(٣٨٧)

١٣ـ فـا كان بـاب الحمـد حتى لقيتـه
بـاخرس مكنـون ولابمصتم (٣٨٨)

---

(٣٨٢) طوال القرى اي طـويـل القرى ، والقرى الظهر ويمدح البعير بطـول الظهر ، ويكره ذلك من الفرس . احناء الغبيط عيدانه واحدها حنو ، والغبيط ، الرحل يشبه وقع اخفـاق البعير على الارض وصك الحجارة بعضها ببعض بصوت احناء الغبيط

(٣٨٣) الستر : واد ، المنتوي : صاحب النية ، المتيم القاصد

(٣٨٤) الحصيدات اسم موضع ، الرعن انف الجبل والمحزم منقطع انف الجبل

(٣٨٥) خيشوم : اقصى الانف ، الاكليل يريد به ماحاط بـه من الرمل،المسـوم المعلم وهو الفـارس الذي يعرف بعلامة يعرف بها في الحرب

(٣٨٦) مشرف مكان عالٍ ، لم يتثلم : لم يتهدم

(٣٨٧) يقال للرجل الشريف فرع ، وفرع كل شيء اعلاه . فاضلة خصلة شريفة

(٣٨٨) مكنون مستور ، ومصتم ، مردود

١٤- جمعت اللواتي يحمد الله عبده
عليهن فليهنأ لك الخير واسلم
١٥- فأولهن البر والبر غالب
ومآبك من عيب السرائر يعلم
١٦- وثانية كانت من الله نعمة
على المسلمين انه خير منعم
١٧- وثالثة ان ليس فيك هوادة
لمن رام ظلما او سعى سعي مجرم(٣٨٩)
١٨- ورابعة ان لا يزال مع التقي
تحث بميمون من الامر مبرم(٣٩٠)
١٩- وخامسة في الحكم إنك تنصف
الضعيف ومامن علم الله كالعمي
٢٠- وسادسة ان الذي هو ربنا أصيد
طفاك فمن يتبعك لم يتندم
٢١- وسابعة ان المكارم كلها
سبقت اليها كل ساع وملجم
٢٢- وثامنة في منصب الناس انه
سما بك منهم معظم فوق معظم
٢٣- وتاسعة ان البرية كلها
يعدون سيبا من امام متمم(٣٩١)
٢٤- وعاشرة ان الحلوم تزابع
لحلمك في فضل من القول محكم(٣٩٢)

---

(٣٨٩) الموادة اللين ، وأجرم : اتى ذنبا ، يريد انك لاتلين مع من يريد الظلم او الاعتداء وانما ترده عن غيه
(٣٩٠) ميمون : ذو يمن ، مبرم : محكم
(٣٩١) السيب : العطاء ، متمم : اي مكمل للمعروف
(٣٩٢) الحلوم : العقول ، يريد انك راجح العقل محكم القول

٢٥- جـواد فـلاينفـك يرفـد بـابـة
اولـو حـــاجـــة مستبشرون بمنعم

٢٦- فقـد جعلت كتـابـه في مـؤونـة
مفـــاتيـح من معروفـــه المتقسم(٢٩٣)

٢٧- اذا مـاحبـا وفـداً اتـاهم بمثلـه
ركـوب المـوامي بـــالمطيّ المخـزّم(٢٩٤)

٢٨- تقيس بـايـديهـا الفـلاة كأنمـا
مـــذارع ايـــديهن اذرع مـــأتم(٢٩٥)

٢٩- اذا شئت ان تلقى فتى البأس والنـدى
وذا الحسب الرابي التليـد المقـدم(٢٩٦)

٣٠- فكن عمراً تـاتي ولاتعـدّونـه
الى غيره واستخبر النـــاس وافهم

٣١- فتى حجبت عنـه الفـواحش كلهـا
فـــا اختلطت منـــه بلحم ولادم

٣٢- غـدا طيب الاثـواب ينفـح عرضـه
مبينـــاً لعين النـــاظر المتـوسم(٢٩٧)

٣٣- شـديـداً على ذي الضغن حين يريبـه
دفـــوعـــاً عن المستضعف المتهضم(٢٩٨)

---

(٢٩٣) يريد ان كتابه يتعبون لمحاولتهم تطبيق العدل الذي يريده في العطاء

(٢٩٤) حبا : اعطى ، الوفد جمع الوفود ، المومأة هي الفلاة

(٢٩٥) تقيس : تذرع

الفحوص القطا موضع البيض ، عاجها : عطفها ، المعرّس : الموضع الذي نزلوا فيه ، والمثوى المقام ، شبه اثار اقدامها بالفا حيض القطا او النساء الممتدة اذا لطمن في مآتم

(٢٩٦) الندى السخاء ، الرابي الزائد ، التليد القديم

(٢٩٧) طيب الاثواب نقي العرض بريء من الدنس ، المتوسم المتفرس .

(٢٩٨) المتهضم : المنقوص من حقه المستذل . والهضم اصله الكسر

٣٤- كأن هلالاً واضحا فرجت له
شماريخ من رابيع متغيم(٣٩٩)

٣٥- على منبر الوادي المقدس كله
يروح بقول ثابت المتكلم

٣٦- اغر محيا بالامارة وجهه
من المنجزين الحمد غير مذمم

٣٧- نماه الى علياء يهلك دونها
تكاليف ذي المأثورة المتكرم(٤٠٠)

٣٨- ثلاثة آباء له كلهم بنى
تماما وملكا ثم لم يتصرم

٣٩- ملوك يرون العدل حقا عليهم
حسان الوجوه يهتدي بهم العمي

٤٠- فكانوا لنا نوراً باذن الذي له
علينا اياد من فضول وانعم

٤١- رأونا فولوا امرنا اتقياءنا
وما علمنا انتا لم نعلم

٤٢- فهذا ثنائي صادقا غير كاذب
عليهم ومن لم يقض بالحق يندم

---

(٣٩٩) شماريخ السحاب : اعاليه ، والمزن السحاب الابيض ، ورابع مطر الربيع يشبهه بالهلال الذي بدا من خلال السحاب المعطر

(٤٠٠) نماه : الى رفيعه ، علياء شرف رفيع . التكاليف : مايتكلفه ويتجشمه . المأثورة . الاخلاق التي تؤثر

التحليل :

عدي بن الرقاع العاملي شاعر اموي مجيد له ديوان حافل بشعر المديح - مديح الخلفاء خاصة - واذا كان الامويون قد شجعوا الشعراء على المديح بعد استقرت دعائم الدولة العربية الاسلامية فان كثيرا من الشعراء - ان لم يكن معظمهم - قد قالوا فيهم مديحا ، حتى اولئك الذي عرفت عنهم مواقف سياسية معينة ، الا اننا نستطيع ان نعدد عددا من الشعراء ممن انصرفوا الى المديح ، واستنفذوا القول فيه ، ويبرز في مقدمتهم شاعران هما الاخطل(٤٠١) وعدي بن الرقاع العاملي ، اللذان يمثلان الشعراء الرسميين او الداعين الى تأييد السلطة لانصرافهما الى المديح في معظم قصائدهما ، ومحاولتهما الدفاع عن موقف الخلافة وتمجيد المآثر بما يرفع مكانة الخليفة في اعين الناس ويرد على مناوئيه .

لقد كان عدي بن الرقاع مقدما عند بني امية مداحا لهم خاصة الوليد بن عبد الملك ، وقد قيل انه دافع عن الخلافة وابدى ايمانه بالوفاء للدولة العربية ، ووضع نفسه في خدمة اهدافها ، والوقوف بحزم تجاه كل الحركات التي حاولت ان تقف بوجهها(٤٠٢) .. وقد دفعه هذا الوفاء الى اقتصار شعره على قادة الدولة وخلفائها خاصة انه عاصر خلافة عبدالملك بن مروان وامتدح وامتدح ابنه الوليد بن عبدالملك وسليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز .

والمتصفح لديوان عدي يجد فيه مطولات في المديح فقصائده في الوليد بن عبدالملك نجد فيها ماتجاوزت الخمسين بيتا(٤٠٣) ، وله قصيدة في مديح عمر بن الوليد بن عبدالملك تقع في ستين بيتا (٤٠٤) .

اجمل مدائحه في الخليفة عمر بن عبدالعزيز ، وقد ذكر ان الاصمعي كان يسمي قصيدته التي مطلعها :

ام انتابنا من اخر الليل زائر

اهمٌ سرى ام عاد للعين عائر

---

(٤٠١) يراجع في هذا كتاب الاخطل الكبير للدكتور فخرالدين قباوة : بيروت ١٩٧١

(٤٠٢) ديوانه - المقدمة ص ٩

(٤٠٣) ديوانه : ٧٣، ٨٣، ٩٦، ١٢١، ١٥٠، ١٦٥، ومواضع اخرى

(٤٠٤) ديوانه : ١٠٨

كان الاصمعي يسمي هذه القصيدة بالحولية ، وذلك لما روي من ان عديا كان قد حبرها في سنة (٤٠٥) .

اما قصيدته التي اخترناها فهي تمثل انموذجا جيدا بين قصائد مديحه وهي من ناحية تمثل عودة القصيدة العربية الى ربوع القصائد التي رست دعائمها في العصر الجاهلي ، وهي من ناحية اخرى صورة لقصيدة المديح الجديدة التي تمثل العصر الاموي بظروفه واحداثه ، وفكره .

واذا كان صوت المديح قد خفت في عصر صدر الاسلام فان ماأثر عن الشعراء الاسلاميين من شعر مديح لم يكن تسجيلا لبطولات اشخاص او مآثرهم قدر كونه تمجيدا للجماعة الاسلامية والدعوة الاسلامية ، ولذلك لم تطل قصيدة المديح عصر صدر الاسلام وانما كانت جزءاً من شعر الدعوة الذي فيه تمجيد لحامل الرسالة (ﷺ) ومدح لاصحابه . وحين استقرت الدولة الاموية شجع الخلفاء الامويون الشعراء على المديح فعاد هؤلاء الى التراث الشعري الجم الذي خلفته القصيدة العربية ، وراحوا يستقون منه مقاييسهم في ابداع القصيدة المطولة التي تبدأ ببداية معروفة تشدّ انتباه السامع لينتقل بعدها الى غرض اخر مهد لها ايضا ، الوقوف على الاطلال ، او مناشدة الصحب للبكاء على الاحبة ليخلص بعد هذا الى التسلي عن الهم برحلة توصله اخيرا الى الممدوح .

ويبدي عدي في مقدماته الطللية محتذيا حذو القصيدة الجاهلية ، بصورها واخيلتها .

الابيات ٤١

يتحدث فيها عن وقوفه في الديار التي امحت آثارها الاّ بقايا تذكره بالكتاب المنم وهذا تشبيه سبق ان اورده الشعراء في العصر الجاهلي وكرره من بعدهم الشعراء التقليديون . وان هذه الديار قد درست آثارها بعد رحيل اهلها عنها فيأتينا بتشبيه آخر هو تشبيه بقايا الديار بالخيلان (جمع خال) ونص على انه خال من نبت معين ، وربما يشير في هذا الى لونه الاسود لانه يريد بقايا الرماد والنار مثلا .

واما سبب وحشة هذه الاثار فلأن اهلها ارتحلوا عنها وتركوها قبل اعوام من ورود الشاعر مرة اخرى عليها ، ومع ذلك فهو مايزال يتذكر منازل الفتيات اللاتي كن فيها .

---

(٤٠٥) ديوانه ص ١٩٧

اما سبب رحلة الفتيات فهو جزء من رحلة اهلهن ، انه تتبع مواطن الماء والكلاء ولكن نسب الرحلة الى الفتيات فقال (سمعن) (وتبعن) ولينقلنا الى صورة رحيلهن على الابل ويسترسل بعدها في وصف الابل وظهورها الطويلة ويشبه وقع اقدامها او مايصدر عنها من صوت حين تبرك باصوات عيدان الرحل اذا حرك . وحين تتجاوز النوق اسماء المواضع التي ذكرها الشاعر تصل الى الخليفة الممدوح .

والمعروف في القصائد التقليدية ان وصف رحلة الحبيبة تمكن الشاعر من الانتقال الى غرض الغزل اذ انه يبدي حزنه على الفراق فيتذكر الحبيبة ويتغزل بها فتهيج عواطفه ، وتتأزم نفسيته وتضطرم لواعج الحب فيه فيبحث عن السلو والنسيان ويركب ناقته ضاربا في الصحراء لينتقل بعدها الى وصف الممدوح الذي يستحق ان يحط الرحلة عنده بعد سفر مضن اما شاعرنا عدي فانه تجاوز هذه الصورة التقليدية ، فيختلط علينا اول الامر من هو المرتحل ؟ اهم الاحبة الذين تركوا الديار ؟ ام الشاعر !! لأنّ عدياً وصف سبب رحلة الفتيات اللاتي اقفرت ديارهن بانه بسبب سماعهن بوجود غيث مريع فتبعنه ، لكن رحلة النوق التي وصفها الشاعر تنتهي بالممدوح ، وبذا تكون رحلة الاحبة ورحلة الشاعر واحدة ، السماع بوجود غيث مريع هو اشارة الى كرم الخليفة وان من يتبعه يجد عنده الخير والعطاء .. وبذا اتى عدي بصورة للرحلة رحلة الممدوح مخالفة لما جاء به الشعراء ، لانها رحلة فريدة رحلة الاحبة ورحلته هو الى الممدوح المعطاء .

في هذه الابيات يبدأ عدي بمدح الخليفة ولكنه فعل مافعل عبيدالله بن قيس الرقيات حين وصف عبدالملك بالسيادة ورمز اليها بلبس التاج ، الا ان عديا لم يكتف بصورة التاج رمز الملك بل تبعها بكونه امير المؤمنين الذي اختاره الله ، وفضله على كل الناس لخلقه ومكارمه ، ولكثرة مايمتدحه الناس فيه من خصال الحمد فانه قد بنى لنفسه مجدا رفيعا ، فما في بني حواء من يفوق فضله ونسبه الا الرسول الكريم (ﷺ) ، وانه قد جمع مكارم الاخلاق والصفات المثلى التي ترضي الله اولاً (جمعت اللواتي يحمد الله عبده) وهي صورة تليق بالخليفة التقي الذي يجب ان يرضي الله اولا ، ويرضي الناس عنه بسلوكه القويم وعدله .

هنا يعدد الشاعر فضائل الخليفة ، وكأنه يريد ان يوثقها بالتعداد والحساب مستخدما نص العدد ، اولاً ، ثانية ، ثالثة ... الى ان يبلغ العاشرة ، ومع انه بعد تعداد الخصال العشرة لم يتوقف عن ايراد غيرها الا انه ترك طريقة العد والحساب بسبب ثقل الاعداد المركبة او اعداد المفرد وعدم صلاحيتها للغة الشعرية كما صلح تعداده الاول .

ان تعداد مآثر الممدوح بدت اقرب الى العد التوثيقي منها الى رسم الصور المادحة المتقنة

اولا : معروف ببره وحسن سره وعلانيته

ثانيا : انه نعمة من الله تعالى حين اختاره خليفة للمسلمين ولاينعم الله نعمة الا وفيها الخير الكثير العام .

ثالثا : انه يحد الظالم والمعتدي ويمنعهما عن غيرهما

رابعا : انه مع تقواه يصحبه الخير والتوفيق في كل امر يبت فيه برأيه

خامسا : ان الله قد علمه العدل ، وهدى طريقه اليه ، لذلك فهو ينصف الضعيف المظلوم

سادسا : ان الله قد اصطفاه لتولي الخلافة لسلوكه التقي ، وبذا فان من يتبعه لايندم لانه يجد الحق والخير عنده

سابعا : انه سباق للمكارم

ثامنا : ان مكانته في النفوس هي فوق مكانة الاخرين وهو بهذا يشير الى ماعرف به هذا الخليفة من حسن سيرة وصلاح قبل توليه الخلافة .

تاسعا : ان الناس كلهم يأملون الخير فيه

عاشرا : انه ذو عقل راجح واحكامه عادلة

الابيات من ٢٥-٢٨

يصف الشاعر عدي ممدوحه بالكرم والانعام على المحتاجين وانه في هذا غير مبذر ولامحاب لجماعة دون اخرى وانما هو معطاء قدر مايقتضيه الحق والعدل فالعطاء للجميع وهنا يأتي عدي بصورة فريدة هي ان ممدوحه قد اتعب موظفيه (كتابه) المكلفين بتدوين اسماء المحتاجين ، اتعبهم في شدة طلبه العدل في توزيع العطاء والخير للناس جميعا والبيت من ناحية اخرى يشير الى مهنة الكتابة وكونها وظيفة يعين من يتولاها الخليفة على تسيير امور الدولة .

الابيات ٢٧ـ٢٨ فما بعدها

يذكر عدي الوفود التي تقدم الى دار الخلافة طالبة عطاء الخليفة وكرمه ، ولكنه هنا يسترسل في وصف الرحلة . رحلة الوافدين - وكأنه بهذا يعوض عن وصف رحلته هو التي اجتزأها اول القصيدة

٢٩ـ٤٢

يعود الشاعر الى وصف شمائل الممدوح ، وهي شمائل تخص خير الدنيا والآخرة لان الخليفة جمع الصفات المادحة التي يتمناها الناس في اي ممدوح مع الصفات المادحة التي يجب توافرها في المؤمن التقي ، وفي من يتولى امر المسلمين ، فهو قد حجبت عنه الفواحش نقي السريرة ، نقي العرض ، بريء من الدنس ، قوي على الاعداء مدافع عن المظلومين ، منزلة مقدس كريم لما يصدر فيه من احكام عادلة ، نسبه شريف ، اباؤه خلفاء عرفوا بالعدل وهنا اشارة الى جد الخليفة عمر بن عبدالعزيز الخليفة العادل عمر واخيرا يختم الشاعر قصيدته كونه مادحا للخلافة على سبيل تثبيت الحق وتكريم من يستحق التكريم وانه صادق في هذا الثناء ، والمديح .

ونستطيع القول من خلال هذه القصيدة وقصائد عدي الاخرى ان عديا كان بحق شاعر الامويين المدافع عن وجهة نظرهم المحاول نشر الدعوة الى نصرتهم وتأييدهم من خلال ماسطره من مآثر ومثل ترفعهم في اعين الناس ، ومن خلال رده على مناوئيهم او الخارجين عليهم ، ويقف عدي هو والاخطل شاعران يمثلان الشعر الرسمي الذي اتخذ المديح اطارا له .(٤٠٦)

---

(٤٠٦) حذفنا من النص عشرة ابيات من وصف رحلة الوافدين وابقينا ابيات المديح الخالصة بالممدوح ، مع تسلسل الأبيات .

محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

اغراض شعرية قديمة ومتطورة (الهجاء)

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

٢ ـ الهجـــاء

الهجاء مثل المديح في تصويره لقيم المجتمع ، فسلب الهجو منها ، وسلخه من الشخصية التي يعتز بها اي فرد في المجتمع يعني ان هذه الصفات هي الروابط والعوامل المشتركة التي اتفق الناس على كونها مفتاح شخصية الرجل الجيد من هنا لابد ان تدخل الفن هذا جملة تغييرات تشمل المعاني والافكار والصور حين انضوى الشعراء تحت راية الاسلام ولعل هذا الغرض اول الاغراض التقليدية التي طرأت عليها التغييرات منذ ان استخدم الشعر وسيلة من وسائل الدفاع عن الدين الاسلامي . فكما تصدى المشركون الى هجاء المسلمين والرسول (ﷺ) امر النبي (ﷺ) شعراءه بالرد عليهم ومن الطبيعي ان يكون هذا الرد فخرا بالدين الجديد وذما وهجاء لجهل الكافرين وكلمة الرسول (ﷺ) (اهجم وروح القدس معك) مشهورة تبين توجيه الهجاء وجهة جديدة .

ولعل قائلا يقول باننا قلنا في حديثنا عن موقف الاسلام من الشعر بأن الرسول (ﷺ) نهى عن الشعر الذي يثلب الاعراض ويهتك الاستار ، فكيف نقول هنا بانه امر شعراءه بهجاء المشركين ... نقول ان لاتعارض بين القولين ، فالمشركون اعلنوا عن لسان شعرائهم حربا شعواء ضد المسلمين والرسول الكريم ، فكان من الطبيعي ان يأمر الرسول (ﷺ) شعراءه بالرد عليهم ولكن ردود هؤلاء الشعراء المسلمين واشعارهم بدت متفاوتة فمنها ماتنقض اقوال المشركين وترد عليهم الشتائم والذم ومنها ماجاء الهجاء فيه بصبغة جديدة حين هجا المسلمون المشركين بالضلالة وقصور التفكير والجهل ومن الهجاء السائر في ركاب جاهلي كثير من قصائد حسان التي هجا بها قريشا متبادلا مع شعرائها النقائض والمهاجاة ، فهو يهجو الوليد بن المغيرة هجاء معتمدا على اسس قبلية ، لان هذا الشخص من قريش معتد بنسبه ، فما كان من حسان الا ان يهجوه بأنه من بطون قريش التي لاقيمة ولاشأن لها ، وان هو الا عبد في قريش التي يفخر بها فيقول :

متى تنسب قريش او تحصـــــــــل
فـــالـــك في اروعتهـــا نصـــاب

نفتـــك بنـــو هصيص عن ابيهـــا
لشجـــع حيث يسترق العنبـــــاب

وانت ابن المغيرة عبـــــد شـــــول
قـد انـدب حبل عـاتقـك الوطـاب

اذا عـــد الاطـــايب من قريش

تـــلاقت دون نسبتكم كـــلاب(٤٠٧)

وفي مقطوعة اخرى يهدد حسان المشركين بالحرب دون الاشارة الى حرب العقيدة والدين ويخوفهم بأخذ الغنائم والاسلاب في معركة قادمة : دون الاشارة الى المسلمين او الدعوة الى الدين الرسول (ﷺ) ويذكر فيها غزوة المصطفى لهم بسبب ذلك وهي المسماة بغزوة ذي قرد :

هـــل سر اولاد اللقيطـــة اننـــا

سلم غـــداة فـــوارس المقـــداد

واللقيطة اسم لام حصن بن حذيفة بن بدر الغزاري ...

كنـــا ثمـــانيـــة وكانـــوا جحفـــلا

لجبـــا فشكـــوا بـــالرمـــاح بـــداد

لـــولا الـــذي لاقت ومس نسـورهـــا

مجنـوب ســـايـــة امس بـــالتقـواد

الى ان يقول :

كـــلا ورب الراقصـــات الى منى

والجـــائبين مخـــارم الاطـــواد(٤٠٨)

حتى نبيـــل الخيـــل في عرصـــاتكم

ونـــؤوب بـــالملكات والاولاد

---

(٤٠٧) ديوان حسان : ٥٩

(٤٠٨) ديوان حسان ١٠٩ الراقصات الابل ، والجائبين القاطعين البلاد والمخارم الطرق في الجبال ، والاطواد الجبال المرتفعة ونبيل الخيل نجعلها تتبول والملكات النساء اللائي املكن اي بالسيدات ، ديوان حسان : ١٥ .

ويهجو حسان حكيم بن حزام بن خويلد بالجبن في الحرب ، ويذكره بأنه هرب يوم بدر والقى سلاحه ، ولعل استمرار حسان في مثل هذه المقطوعات بالهجاء على الطريقة الجاهلية ، مرده الى انه يخاطب اناسا مازالوا تاريخيا في فكر قبل الاسلام او منتمين الى عصره في قيمهم التي يعتدون بها او في المعايب التي تثيرهم وتغيظهم ، فاذا كان لحسان ان يرد عليهم ويهجوهم فما عليه الا ان يستعمل القيم والاعراف نفسها التي يؤمنون بها ، ويخشون ان يذموا بالتخلي عنها ودليلنا في هذا انه كان كثيرا مايجعل هجاءه قائما على عنصرين عنصر شتم قريش والمشركين بالمعايب التي تغض من شأنهم في عيون القبائل التي لم تسلم بعد ، وعنصر اخر اسلامي يقابل الهجاء الجاهلي وهو مقارنة حالة قريش والمشركين بحال المسلمين المؤمنين الذين يؤزرهم نصرالله والملائكة ويحيطهم النبي (ﷺ) بهدى الدين ونور النبوة وتحدوهم الرغبة في ثواب الله وطلب جنته وبذا يخرج بالهجاء من منظوره الجاهلي الى منظور اسلامي :

لقد لعن الرحمن جمعا يقودهم
دعيّ بني شجع لحرب محمد

مشوم لعين كان قدما مبغضا
يبين فيه اللؤم من كان يهتدى

فدلاهم في الغي حتى تهانتوا
وكان مضلا امره غير مرشد

فانزل ربي للنبي جنوده
وايده بالنصر في كل مشهد

وان ثواب الله كل موحد
جنان من الفردوس فيها يخلد(٤٠٩)

على اننا لانعدم في هجائه قيما اسلامية جديدة واساليب فرضت عليه وعلى غيره من شعراء الدعوة الاسلامية حين هجوا المشركين بالضلالة العمياء والجهل عن حقيقة الدين وتهديد المشركين من ثم بالعذاب في الدنيا والخزي والعقاب في الآخرة ، لان هناك حسابا فثوابا وعقابا

---

(٤٠٩) ديوان حسان : ٢٩٢ .

كما دعت الرسالة الاسلامية ففي يوم احد اصيب الرسول (ﷺ) بسهم ارسله عتبة بن ابي وقاص فاصاب رباعيته وكسرها وجرح شفتيه ، فما كان من حسان الا ان يهجو عتبة ويعده بالخزي في الحياة الدنيا وبالعذاب وعقاب الله يوم القيامة :

اذا اللـــه حيـــا معشرا بفعـــالهم
ونصرهم الرحمن رب المشـــــارق

فـاخـزاك ربي يـاعتيب بن مـالـك
ولقـاك قبـل الموت احـدى الصواعـق

بسطت يمينـــا للنبي برميـــة
فـأدميت فـاهـا قطعت بـالبـوارق

فهـلا خشيت اللـــه والمنزل الـــذي
تصير اليـه بعـد احـدى الصفـائـق

لقـد كان خـزيـا في الحيـاة لقـومـه
وفي البعث بعد الموت احدى العوالق(٤١٠)

ويهجو قريشا بانها في استجابتها لدعوة ابي سفيان في حربه للرسول (ﷺ) انما تتبع الشيطان ، اما المسلمون جميعا فانهم يعبدون الرحمن الذي هو اعظم من ان يشرك به بعبادة وثن من الاوثان التي تعبدها قريش . وبذا يقوم هجاؤه على سبيل الموازنة بين عقيدة الدين وجهل الجاهلية :

طـــاوعـوا الشيطـــان اذ اخـزاهم
فـــاستبـــان الخـزي منهم والفشـل

حين صـــاحـوا صيحـــة واحـــدة
مـع ابي سفيـان قـالـوا : اعـل هبـل

فـــاجبنـــاهم جميعـــا كلنـــا
ربنـــا الرحمن اعلى واجـــل(٤١١)

(٤١٠) شعر الدعوة : ٣٣٦ ، ديوان حسان

(٤١١) شعر الدعوة : ٣٣

على ان هذه القيم الاسلامية الجديدة التي دخلت ثم في هجاء الشعراء في عصر الدعوة استمرت في عصر الخلفاء الراشدين ، والعصر الاموي فهذا معاذ بن يزيد بن الصعق يهجو المرتدين بخروجهم على الدين الاسلامي ، ويصفهم بالكذب والطمع لانهم منعوا اداء الزكاة الفرض الذي وضعه الله تعالى المسلمين وتركوا اداء الصلاة فأي شيء بقي لهم من عقيدتهم في الدين الاسلامي :

بني عامر أين اين الفرار
من الله والله لايغلب
منعتم فرائض اموالكم
وترك صلاتكم اعجب
وكذبتم الحق فيا اتى
وان المكذب للاكذب(٤١٢)

ويقول عمارة بن قريط :

ثقلت صلاة المسلمين عليكم
بني عامر والحق جد ثقيل
واتبعتموها بالزكاة وقلتم
الا لاتفروا منها بفتيل
فلا يبعد الله المهين غيركم
سبيلكم في كل شر سبيل(٤١٣)

ونجد استمرار هذه العناصر من الهجاء في عصر الراشدين والعصر الاموي فيتفق الشعراء بسلب مهجويهم من كل مايرفع شأنهم في نظر الناس او على الاقل من عناصر الشخصية السوية في المجتمع المسلم . فالحطيئة يهجو الوليد بن عقبة والي الكوفة ، ويستغل المبدأ الاسلامي الذي يجب توافره في شخصية ولاة الامر وهو مبدأ التقوى واداء الفروض فيحاول ان يسلب مهجوه منه فيتهمه بانه يشرب الخمر واي شرب ، انه شرب مخالط لاداء الصلاة فهل يحق له بعد هذا ان يبقى واليا على الكوفة :

---

(٤١٢) الاصابة ٤٧٣/٣ عن شعر الدعوة : ٣٤٤

(٤١٣) المصدر نفسه : ٣٤٥

شهد الحطيئة حين يلقى ربه

ان الوليد احق بالعذر

نادى وقد قضوا صلاتهم

أزيدكم ثملا ومايدري(٤١٤)

واذا كان سلب صفات المهجو الاسلامية يمثل قيم المجتمع ويشبه المديح من هذه الناحية، فان هناك عناصر دخلت الهجاء في غير موضوع القيم والاخلاق الاسلامية ، وهي عناصر دخلت لغة الشاعر واخيلته اقتباسا او تأثرا بصورة قرآنية كريمة ، ونجد هذا واضحا في شعر النقائض ومهاجاة الشعراء في العصر الاموي اذ استمدوا من التشبيهات والاخيلة القرآنية ، ومن قصص الانبياء والامم الواردة في القرآن استمدوا من كل هذا مادة ادخلوها في نقائضهم بغض النظر عن كون اهاجيهم خارجة عن النطاق السياسي او النزاع المذهبي او الديني فالفرزدق يهجو جريرا لانه اراد هجاء بني نمير ويهدده بانه سيلقى العذاب والهجاء ضعفين منه فحاله كحال اهل النار الذين يعذبون بلظاها ، فاذا استغاثوا منها ومن حرها سقوا الصديد :

فانك في هجاء بني نمير

كأهل النار اذ وجدو العذابا

رجوا من حرها ان يستريحوا

وقد كان الصديد لهم شرابا(٤١٥)

ويشبه شؤم جرير على قومه وجره هجاء خصومه لهم بانه يشبه شؤم ناقة ثمود الواردة في القرآن الكريم في قوله تعالى (فعقروا الناقة وعتوا عن امر ربهم ، وقالوا ياصالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ، فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين) . سورة الاعراف : ٧٧-٧٨ يقول الفرزدق :

وكان جرير على قومه

كبكر ثمود لها الانكد

---

(٤١٤) ديوان الحطيئة : ٢٣٣ ، وانظر انساب الاشراف ٢٢/٥ وهناك خلاف بالرواية .

(٤١٥) ديوان الفرزدق ق١٠٢/١ وانظر ايضا ص١٠٨ والنقائض ١٦١/٢ ، ٧٦ .

رغـــا رغـــوة بمنـــايـــاهم

فصـــاروا رمـــادا مـــع الرمـــدد(٤١٦)

والاخطل شاعر مسيحي ومع ذلك استفاد من هذه الصورة القرآنية وادخلها في موضوع هجائه فقال :

ولمـــــا رأى الرحمن ان ليس فيهم

رشيـــد ولانـــاه أخـــاه عن الغـــدر

امـــال عليهم تغلب ابنـــة وائـــل

فكانـوا عليهم مثـل راغيـة البكر(٤١٧)

ويتخذ شعراء النقائض من قصة موسى وفرعون مادة في هجائهم فالسامري الذي اضل قومه يستفيد من قصته كل من جرير والفرزدق في هجائها ، فالفرزدق يهجو جريرا بانه اضل قومه كما اضل السامري قومه فيقول :

ولقـد ظللت ابـاك تطلب دارمـا

كضـلال ملتمس طريـق وبـار

كالسـامري يقـول ان حركتـه

دعني فليس عليّ غير ازاري(٤١٨)

ويقول جرير ذاكرا الصورة القرآنية نفسها

ولمـا دعـوت العنبري ببلـدة

الى غير مـاء لاقريب ولاأهـل

ظللت ضـلال السـامري وقـومـه

دعـاهم فظلوا عـاكفين على عجل(٤١٩)

---

(٤١٦) النقائض ٦٩٦/٣ ، ٢٥٥ وانظر شعر الصلتان العبدي في شرح نهج البلاغة ٤٤٦/١ ، اثر القرآن : ١٠٨ .

(٤١٧) شعر الاخطل : ٢٢١ وانظر الكامل ٦/١ اثر القران : ١٠٨ .

(٤١٨) النقائض ٣٣١/١

(٤١٩) المصدر نفسه ٣٦٥/١ .

ويعتمد الفرزدق في احدى اهاجيه على صورة جديدة من الصور الواردة في القصص القرآنية ، حين يشبه مهجوه بابن نوح الذي طغى وتجبر على ابيه واخذه الغرور وظن ان اعتلاءه الجبل يخلصه من الطوفان ، او ان نهايته ستكون مثل نهاية اهل الفيل حين وجه اليهم الله تعالى عذابه فرماهم بحجارة من سجيل :

فلما طغا الجحاد حين طغا به
غنى قال اني مرتق في السلام
فكان كما قال ابن نوح سأرتقي
الى جبل من خشية الله عاصم
رمى الله في جثمانه مثل مارمى
عن القبلة البيضاء ذات المحارم
جنود تسوق الفيل حتى اعادهم
هباء فكانوا مطرخمي الطراخم
نصرت كنصر البيت اذ ساق فيله
اليه عظيم المشركين الاعاجم(٤٢٠)

وقد استفاد شعراء السياسة في هذا العصر من العناصر الجديدة التي دخلت المجتمع العربي ودخلت من ثم الى تعابيرهم فاصحاب كل فريق سياسي يمثلون الحق والعدل ونادتهم أنفى الناس ، واحسن من يطبق امور الدين ويهجون اعداءهم بالخروج على مبادئ الاسلام وعدم الالتزام بالفروض والواجبات فضلا عن استفادتهم من القصص القرآنية والصور والتشبيهات الواردة في القرآن الكريم - كما مر بنا من قبل - وهي مادة وتشبيهات لم تكن في اللغة الشعرية في عصر ماقبل الاسلام .

وسنختار من شعر الهجاء مايمثل ظاهرة شعر النقائض ، ومايقدم صورة عن اشعار شعرائها الكبار ، جرير والفرزدق والاخطل .

---

(٤٢٠) النقائض ٢٤٨/١ .

محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

قصائد (جرير ، الفرزدق ، الأخطل) وتحليلها

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

قصيدة وتحليل

قال جرير يهجو الاخطل (٤٢١)

١ ـ لمن الـديـار ببرقـة الروحـان
اذ لانبيـع زمـاننـا بـزمـان (٤٢٢)

٢ ـ ان زرت اهلـك لم تبـالي حـاجتي
واذا هجرتـك شفني هجراني (٤٢٣)

٣ ـ راجعت بعـد سلـوهن صـابـة
وعرفت رسم منـازل ابكاني (٤٢٤)

٤ ـ نـزل المشيب على الشبـاب فراعني
وعرفت منزلـه على اخـداني

٥ ـ قـد راعنيّ صلـع وشيب شـامـل
بعـد الشبـاب وعهـده الفينـان (٤٢٥)

٦ ـ اصحـا فـؤادك اي حين اوان
ام لم يرعـك تحمـل الجيران (٤٢٦)

٧ ـ هـل تبصران وديار اروى دوننـا
بـالاعـزلين بـواكر الاظعـان (٤٢٧)

---

(٤٢١) نقائض جرير والاخطل/لابي تمام . دار الكتب العلمية بيروت ١٩٢٢ صفحة ١٨ فما بعدها .

(٤٢٢) برقة الروحان : اسم موضع يتذكر ايامه في برقة الروحان حيث كانوا راضين بعيشهم لايرغبون ببيعه اي لايستبدلون بعيشهم اخر .

(٤٢٣) شفني : هزلني واضرني .

(٤٢٤) يتساءل الشاعر لشدة شوقه هل برح مكانه . البردان : قطعتان من رمل .

(٤٢٥) بعد سلون : اي بعد سلوي عنهن اي انه تذكرهن حين وقف على الديار .

(٤٢٦) اي اوان : تعجب ، يريد اي حين صحا .

(٤٢٧) دير اروى بالشام ، والاعزلان موضعان ببلاد بني كليب .

٨ - صـــدع الظعـــائن يـــوم بنّ فـؤاده
صـدع الـزجـاجـة مـا لـذاك تـدانِ(٤٢٨)

٩ - فرفعت مـــائرة الـــدفـوف املهـــا
طـــول الـــوجيف على وجى الامران(٤٢٩)

١٠- حرفـــا اضر بهـــا السفـــار كأنهـــا
جفن طـويت بـــه نجـــاد يمـــان(٤٣٠)

١١- ضـــاع الـزبير وقيـل ان مجـــاشعـــا
شهـــدوا بجمـع صـنياطر عـــزلان(٤٣١)

١٢- واذا لقيت على زرود مجـــــاشعـــــا
تركـوا زرود خبيئـــــة الاعطـــان(٤٣٢)

١٣- ان الفرزدق والقرين وضـــــــــوطرا
بئس الفـوارس ليلـــة الحـــدثـــان(٤٣٣)

١٤- لمـــا جبنت كفى الثغـــور مشيّـــع
منـــا غـــداة هـــزمت غير جبـــان(٤٣٤)

---

(٤٢٨) الصدع الكسر المستطيل ، يريد كما ان صدع الزجاجة لايلتئم فكذلك صدع قلبه الذي كان بسبب رحلة الاحبة .

(٤٢٩) رفعت : اي رفعت ناقتي في السير ، الدفوف جمع دفع وهو الجنب ، يريد وصف ناقته بانها تسرع في حركتها وتمور دفوفها اذا سارت . الوجا وجع يصيبها في اخفافها ، الامران : الاخفاف سميت بذلك لانها مرنت السير .

(٤٣٠) الحرف الناقة يشبهونها بحرف الجبل من غلظها ، وقيل الحرف : الضامر ، الجفن غمد السيف ، والنجاد حمائل السيف ، ويماني صفة للسيف

(٤٣١) اي شهدوا مقتل الزبير فضيعوه ولم ينصروه . صنياطر : ضخام لاغناء عندهم اي ضخامة بلا فائدة . والاعزل الذي لاسلاح له

(٤٣٢) زرود موضع وقيل اسم رمل . يريد ان بني مجاشع اذا وردوا الموضع المعروف بزرود خبثوه لخبثهم .

(٤٣٣) القرين : اسم رجل من قوم الفرزدق من مجاشع ايضا . وضوطر هو الشاعر البعيث .

(٤٣٤) يقول لما جبنت في الدفاع عن الثغور كفاها رجل من فارس جرى معه شيمة اي جماعة .

١٥- ان رمت عبد بني اسيدة عزنا فاثقل مناكب يذبل وأبان (٤٣٥)

١٦- كذب الفرزدق ان قومي قبلهم قسطت فوارسهم على النعمان (٤٣٦)

١٧- منهم عتيبة والمحل وطارق والحنتفان ومنهم الردفان (٤٣٧)

١٨- انا لنغتصب الملوك نفوسهم قابوس يعلم ذاك والجونان (٤٣٨)

١٩- قل للمشور والمعرض نفسه من شاء قاس عنانه بعناني

٢٠- عدا جدعت انوف تغلب بعدما حزّ المواسم آنفة الاقيان

٢١- إنّ القصائد يا أُخيطل فاعترف وصلت اليك مجرة الارسان (٤٣٩)

---

(٤٣٥) يصفه بانه عبد وانى لمثله ان يروم عزنا وهو بهذا كمن يحاول ان ينقل جبلين من مكانهما (يذبل وابان اسمان لجبلين) .

(٤٣٦) جرير هنا يكذب الاخطل لانه ادعى في شعره بان تاج الملوك وعزها في بني دارم قوم الفرزدق ، فيكذبه ويقول بان قومه سبق ان انتصروا على الملك النعمان .

(٤٣٧) يعدد جرير هنا اسماء فوارس قبيلته . والردفان عتاب ابن هرمي وابنه عوف بن عتاب ، والردفان هما من ينوبان مناب الملك اذا غاب ، وقد ذكر ان مالك بن نويرة كان ردفا ايضا

(٤٣٨) يشير هنا الى يوم طخفة وفيه هزمت بنو يربوع جيش المنذر بن ماء السماء ، والجونان هما عمرو ومعاوية ابنا شراحيل اسرا يوم الشعب

(٤٣٩) مجرة الارسان اي مخلاة الطريق اي لاتحبس عنك ، وصغر اسم الاخطل للتحقير .

٢٢- وعلقت في قرن الثلاثة رابعا
مثل البكار ذرقن في الاقران(٤٤٠)

٢٣- والتغلبي مغلب قعدت به
مسعاته عبد بكل مكان

٢٤- والتغلبي على الجواد غنيمة
والتغلبية مهرها فلسان

٢٥- ياذا العباية ان بشرا قد قضى
ان لاتجوز حكومة النشوان(٤٤١)

٢٦- فدعوا الحكومة لستم من اهلها
ان الحكومة في بني شيبان(٤٤٢)

٢٧- قيس على وضح الطريق وانتم
تترددون تردد العميان(٤٤٣)

٢٨- وطئت سنابك خيل قيس منكم
قتلى يقبح روحها الملكان(٤٤٤)

٢٩- ياعبد تغلب ماتزال مغلبا
فاخسأ بدار مذلة وهوان

٣٠- اني ليعرف في السوابق منزلي
عند الملوك وعند كل رهان(٤٤٥)

---

(٤٤٠) يقول نشقت كما ينشق الظبي الحمار في الشبك ، والقرن الحبل الذي قرنوا به اي علقت حبلي الذي جمعتهم فيه والثلاثة هم الفرزدق والبعيث وعمرو بن لجأ ، والرابع الاخطل .

(٤٤١) بشر هو بشر بن مروان كان قد سأل الاخطل رأيه في جرير والفرزدق ففضل الاخطل الفرزدق ، وخاطبه بذي العباية ليشير الى ماقيل من ان الاخطل لبس يوم الجسر عباءة .

(٤٤٢) يقول له انك لست مؤهلا لاصدار حكم في المفاضلة التي سئلت عنها .

(٤٤٣) يعني انهم لايعرفون طريق الحق من الباطل وهو يترددون كما يتردد الاعمى .

(٤٤٤) يعني ان ارواحهم اذا رفعت الى السماء فعرفتها الملائكة قبحتهم لسوء فعالهم .

(٤٤٥) الرهان في الكرم والمسابقة ، اي ان منزلته معروفة بين الناس واذا تبارى الفرسان فمكانه في الطليعة ومعروف ، وهو مقدم عند الملوك .

وقال الفرزدق يرد على جرير (٤٤٦)

١ - يـــا ابن المراغـــة والهجـــاء اذا التقت
اعنـــاقـــه وتمـــاحـــك الخصمان (٤٤٧)

٢ - مـــاضر تغلب وائـــل اهجـــوتهـــا
امـــا بلت حين تنـــاطـــح البحران (٤٤٨)

٣ - يـــا ابن المراغـــة ان تغلب وائـــل
رفعـــوا عنـــاني فـــوق كل عنـــان (٤٤٩)

٤ - كان الهـــذيـــل يقـــود كل طمرة
دهـــاء مقربـــة وكل حصـــان (٤٥٠)

٥ - يقطعن كل مـــدى بعيـــد غـــولـــه
خبب السبـــاع يقـــدن في الارســـان (٤٥١)

٦ - وردوا إراب بجحفـــــــل من تغلب
لجب العشي صنبـــــــارك الاركان (٤٥٢)

٧ - فيـــه يبيت من المخـــافـــة عـــائـــذاً
الف عليـــــه فـــوانس الابـــدان (٤٥٣)

---

(٤٤٦) نقائض جرير والاخطل ٢١٣ فما بعدها

(٤٤٧) يقول : الهجاء انما يكون اذا التقت اعناقه وجد الشاعران ونظر في شعرهما . التماحك اللجاجة ، والخصمة في الشعر .

(٤٤٨) مجتمع البحرين قيل هو بعبادان يعني ان هجاء جرير في تغلب لايضرها ولايؤثر فيها لان فضلها معروف في العرب .

(٤٤٩) عنان : كناية عن الشرف ، يقول ان تغلب قد شرفتني فوق كل شريف .

(٤٥٠) الهذيل بن هبيرة التغلبي خرج من ارض الجزيرة في الف تغلبي واغار على حنبة ثم على بني يربوع وابن عطفي .

(٤٥١) اغول : بعد ، يصف الخيل بانهن مدربات مجنبات الى ان يحتاج اليهن يوم الغارة .

(٤٥٢) ححفل جيش كثير ، لجب كثير الضجة ، صنبارك عظيم ضخم .

(٤٥٣) يقول انهم اكثرتهم يستجير بهم الف من الناس ذوي سلاح . والفوانس الدروع

٨ - والحوفزان اميرهم متضائل

٩ - تركوا لتغلب اذ رأوا ارماحهم في جمع تغلب ضارب بجران(٤٥٤)

١٠- تدمي وتغلب يمنعون بناتهم بباراب كل لئيمة مدران(٤٥٥)

١١- يمشين في اثر الهذيل وتارة اقدامهن حجارة الصوان(٤٥٦)

١٢- احبين تغلب اذ وردن بلادهم يردفن خلف اواخر الركبان(٤٥٧)

١٣- يمشين بالفضلات بين رحالهم لما سمن وكن غير سمان(٤٥٨)

١٤- لولا اناتهم وفضل حلومهم يتبعن كل لحقيرة ودخان(٤٥٩)

١٥- وكأن رايات الهذيل اذا علت باعوا اباك بأوكس الاثمان(٤٦٠)

فوق الخميس كواسر العقبان(٤٦١)

---

(٤٥٤) ضارب بجران : اي ذليل .

(٤٥٥) مدران من الدرن وهو الوسخ

(٤٥٦) يعني انهن سبايا يمشين حافيات . الصوان حجارة تدمي اقدامهن

(٤٥٧) اما ان تساق نساؤكم خلف جيش الهذيل ، او يتركن اخر الركب لذلتهن .

(٤٥٨) يريد انهن في اسرهن احببن تغلب لانهن وجدن عندها الاكل وكن جياعا في دياركم .

(٤٥٩) الفضلات الخمور ، العقيرة الصوت ، يقول حيثما رأين دخانا تبعنه يستطعمن . وانهن شربن الخمور .

(٤٦٠) الاناة الحلم . يقول منوا على الخطفي حين اسروه ، وهبه الهذيل لعمرو بن عقفان اليربوعي . وكان عمرو ابن اخت الهذيل . واوكس الاثمان ارخصها .

(٤٦١) شبه الرايات باجنحة العقبان اذا كسرت ، والكاسر المنقض من العقبان .

١٦- فـــاســـأل بتغلب كيف كان قـــديمهم
وقـــديم قـــومـــك اول الازمـــان(٤٦٢)

١٧- لـــولا فـــوارس تغلب ابنـــة وائـــل
نـــزل العـــدو عليـــك كل مكان(٤٦٣)

١٨- حبـــوا ابن قيصر وابتنـــوا برمـــاحهم
يـــوم الكـــلاب كافضـــل البنيـــان(٤٦٤)

١٩- قـــوم هم قتلـــوا ابن هنـــد عنـــوة
عمرا وهم قسطـــــــوا على النعمان(٤٦٥)

٢٠- قتلـوا انـــائـــع والملـــوك واوقـــدوا
نـــارين قـــد علتـــا على النيران(٤٦٦)

٢١- قـــوم اذا وزنـــوا بقـــوم افضلـــوا
مثلي مـــــــــوازنهم على الميزان

---

(٤٦٢) قديمهم : شريفهم . اول الازمان يريد بها مامضى

(٤٦٣) يريد ان العدو ينزل في كل مكان تنزل فيه لولا حماية تغلب لكم .

(٤٦٤) حبسوا : ردّوا .

(٤٦٥) عمرو بن هند قتله عمرو بن كلثوم التغلبي لما ارادت هند ان تستخدم ليلى ام عمرو بن كلثوم فنادت ليلى : واذلاه يالتغلب فسمعها ابنها فثار الى السيف فضرب رأس عمرو بن هند .

(٤٦٦) صنائع الملوك الذين اصطنعوهم ويعني بالنارين يوم اوقد فيه التغلبي نارا على جبل يدعى خزازا .

وقال الاخطل يمدح بني دارم ويهجو جريرا (٤٦٧)

١ - بكر العـــوذل يبتـــدرن مـــلامتي
والعـــالمـــون فكلهم يلحـــاني (٤٦٨)

٢ - في ان سقيت بشربـــة مقـــذيـــة
صرفٍ مشعشعـــة بمـــاء شنـــان (٤٦٩)

٣ - فضللت اسقي صـــاحبي من بردهـــا
عمـــدا لأرويـــة كا اراوني

٤ - وذكرت اذ جرت الشمال فهيجت
شوقـــاً لنفـــا ريـــا وام ابـــان (٤٧٠)

٥ - والحـــارثيـــة انني مهـــدٍ لهـــا
مـــدحـــا يشب بهن كل مكان

٦ - لاقيتهن بجمـــع قـــأرينيي
صـــور المهـــا بـــزخـــارف البنيـــان

٧ - ومرمـــل الحنـــاء يصبـــح قـــانيـــا
كـــدم الـــذبيـــح بـــاروح وينـــان (٤٧١)

٨ - واذا رأين الشيب لم يقربنـــــه
والغـــانيـــات عن الكبير غـــواني

٩ - يقطعن عنـــه كل حبـــل مـــودة
جهـــلا وهنّ الى الشبـــاب رواني (٤٧٢)

---

(٤٦٧) نقائض جرير الاخطل ٢١٩ فما بعدها .

(٤٦٨) يلحا : يلوم ، واللحاء اللوم .

(٤٦٩) مقذية قد قذيت وصفيت ، مشعشعة ممزوجة وماء شنان ماء مقطر والماء الذي يقطر من قربة او شجب شنان وشنانة .

(٤٧٠) الشمال : ريح الشمال .

(٤٧١) الدم الشديد الحمرة . والاراوح جمع راح راحة .

(٤٧٢) رواني : مديمات النظر .

١٠- اني اديم لـــذي الصفـــاء مـــودتي
واذا تغير كنت ذا ألـــوان

١١- وافـــارق الخـــلان عن غير القلى
واميت عنـــدي السر بـــالكتمـــان

١٢- مـــابـــال قـــوم لاتغب اذاتهم
قعس الظهـــور من الحقين بطـــان(٤٧٣)

١٣- هم هيجـــوا حربي ومـــالهم بهـــا
لـــو واجهتهم بـــاللقـــاء يـــدان

١٤- قبـــح الالـــه بني كليب انهم
لايحفظـــون محـــارم الجيران

١٥- قـــوم اذا نفـــخ الحقين بطـــونهم
لم ينزعـــوا بقـــوارع الفرقـــان

١٦- واذا تنـــودب للمكارم والعـــلا
لم ينـــدبـــوا لتوافـــد الاعـــوان

١٧- أجرير انـــك والـــذي تسمـــو لـــه
كعسيفـــة فخرت بمجـــدج حصـــان

١٨- اتعـــد مـــأثرة لغيرك فخرهـــا
وسنـــاؤهـــا في ســـالف الازمـــان

١٩- تـــاج الملـــوك وصهرهم في دارم
ايـــام يربـــوع مـــع الرعيـــان

٢٠- واذا وضعت ابـــاك في ميزانهم
رجحـــوا وشـــال ابـــوك في الميزان

٢١- ولقـــد تقـــايستم على احـــابكم
وجعلتم حكمـــا من الـلطـــان(٤٧٤)

---

(٤٧٣) الاقعس : المنحني الظهر ، والحقين اللبن المخثون في الوطاب .

(٤٧٤) المقايسة ان تقول ابي اشرف من ابيك وابي فلان وجدي فلان شال ارتفع يريد انهم كانوا ارجح منك .

٢٢- فـــاذا كليب لاتـــوازن دارمـــا
حتى يـــوازن كرذم بـــأبـــان(٤٧٥)

٢٣- فـــاذا سمعت بـــدارم قـــد اقبلـــوا
فـــاذهب اليـــك مخـــافـــة الطـــوفـــان(٤٧٦)

٢٤- واذا وردت المـــاء كان لـــدارم
عفـــواتـــه وسهـــولـــة الاعطـــان(٤٧٧)

٢٥- انسيت قتلى بـــالكـــلاب وحـــابس
وبكيت ويحـــك برقـــة الروحـــان(٤٧٨)

٢٦- ودت تميم بـــالكـــلاب لـــو انهـــا
بـــاعت هنـــاك زمـــانهـــا بـــزمـــان

٢٧- والخيـــل تردي بـــالكـــاة كأنهـــا
يـــوم الكـــلاب كـــواسر العقبـــان(٤٨٠)

٢٨- برجـــال تقلب كالاســـود ومعشر
قتلـــوا طريقـــا من بني شيبـــان(٤٧٩)

---

(٤٧٥) يقول لاتستوي انت وابوك ودارم حتى يتساوى هذان الجبلان كرذم وابان .

(٤٧٦) اي اذهب فانهم مثل الطوفان عليك يغرقونك بفخرهم .

(٤٧٧) عفواته خيره ، سهولة الاعطان يقول ياخذون اسهل الاعطان ويعطونك اغلظها ، والاعطان مبارك الابل . ومرابض الغنم .

(٤٧٨) يشير في هذا البيت الى مطلع قصيدة جرير :
لمن الديار ببرقة الروحان
اذ لانبيع زماننا بزمان

(٤٧٩) يشير في هذا البيت الى البيت السابق لجرير .

(٤٨٠) تردي تعدو والرديان ضرب من المشي .

جرير والفرزدق والاخطل شعراء النقائض :

اصحاب هذه القصائد ثلاثة اعلام من شعراء العصر الاموي اقترن اسمهم بغرض واحد عرف باسم النقائض ، ولذلك اخترنا ثلاث اختيارات لتحليلها ومعرفة اجواء النقائض من خلالها وتدرس وفق اطار الهجاء الذي يعد قوامها واساس انبعاثها .

لقد كان لخمود العصبية القبلية في عصر صدر الاسلام اثر في انحسار روحها في شعر ذلك العصر ، ومع ذلك عرف العصر نقائض دارت بين المشركين والمسلمين وفق اطار الدعوة التي وجدت من يناوئها ويرد على شعرائها ، ولكن ظروفا عديدة استجدت في العصر الاموي منها سياسية وفكرية واجتماعية تعاضدت جميعها على انبعاث الروح العصبية من جديد وانبعاثها في نفوس الشعراء ، ومثلت النقائض هذه الروح كما مثلت العصر خير تمثيل فانبعث الهجاء اولا في المجتمع البصري بين شاعرين ينتميان الى قبيلة واحدة هي تميم وينتسبان الى فرعين منها ، جرير الى عشيرة كليب من بني يربوع والفرزدق ينتمي الى عشيرة مجاشع من بني دارم ، فكانت مهاجاتهما محط انتباه اهل البصرة وشغلهم الشاغل حتى تناقلت الالسن قصائدهما وانقسم الناس فريقين احدهما يفضل الفرزدق والاخر جريرا وكان الشاعر المفضل عليه يلوح بنيران هجائه الى كل من فضل صاحبه عليه ، فالمسألة لم تعد مسألة مهاجاة قبلية قدر كونها متعة فكرية وتحولت فيها النقائض من غاية الهجاء الخالص الى غاية جديدة هي سد حاجة الجماعة الحديثة في البصرة الى ضرب من ضروب الملاهي (٤٨١) ، وتحولت الى نوع من المنافسة الادبية الفنية .

استمرت المهاجاة بين الشاعرين نحو خمسٍ واربعين سنة دخل معهم في المهاجاة شعراء كثيرون سرعان ماسقطوا تحت وابل الهجاء فانسحبوا ليسلموا بعرضهم وشرفهم من لظى الهجاء ، وسخريته . حتى قيل ان جريرا وحده اسقط في الهجاء اكثر من اربعين شاعرا وقيل بل ثمانين شاعرا (٤٨٢) .

---

(٤٨١) العصر الاسلامي ضيف ٢٤٢

(٤٨٢) اتجاهات الشعر في العصر الاموي ٢٦٧ وينظر تاريخ النقائض للشايب ، والنقائض للدكتور محمود عناوي الزهيري .

قلنا ان النقائض قامت اساسا على الهجاء ولكنها اختلفت عن قصائد الهجاء الخالصة في كونها تستلزم وجود شاعر آخر يرد على الشاعر الهاجي بقصيدة تقوم على الوزن والبحر والقافية التي قال فيها الشاعر الاول فتكون القصيدتان نقيضتين تشترك في المعاني العامة لان الشاعر الناقض لابد ان يهدم المعاني الهاجية او المادحة او المفتخرة ويأتي بما يبطلها فخرا بنفسه وقومه وهجاء للشاعر وعشيرته وتشير نقيضة جرير التي اخترناها الى سبب دخول الاخطل في النقائض ، كما تشير نقيضة الاخطل التي اخترناها الى نقضه لمعنى ورد في مطلع قصيدة جرير .

قيل ان بشر بن ابي مروان والي الكوفة كان يغري بين الشعراء فقال للاخطل : احكم بين الفرزدق وجرير فقال : اعفني ايها الامير ! قال : احكم بينهما ، فاستعفاه بجهده فأبى الا ان يقول فقال : هذا حكم مشؤوم ثم قال : الفرزدق ينحت من صخر ، وجرير يغرف من بحر ، فلم يرجى بذلك جرير ، وكان سبب الهجاء بينهما .

وذكرت رواية اخرى مفادها ان الاخطل بعث ابنه مالكا من الشام الى العراق ليأتيه بخبر الشاعرين فلما لقي اباه قال له : وجدتُ جريراً يُغرف من بحر ، والفرزدق ينحت في صخر فقال الاخطل : الذي يغرف من بحر اشعرهما ثم قال شعرا يفضل فيه جريرا . وقيل انه لما قدم الكوفة بعث اليه ابن عم الفرزدق بهدية وطلب منه ان يعين الفرزدق ويفضله على جرير .

وبغض النظر عن اختلاف هذه الروايات يبقى الاخطل الى جانب الفرزدق ضد جرير وهذا ماتدل عليه قصائده ، والمختارات الثلاث التي ذكرناها تبين روح النقائض التي سادت بين هؤلاء الشعراء ، وسنجد ان كثيرا من المعاني قد وردت فيها مع اختلاف تناول الشاعر الواحد لها نقضا او بناءً .

قصيدة جرير

١ - ٩

تبدأ بتذكر الديار والبكاء على احبته على نهج الشعراء في قصائدهم التقليدية .. فهو يبكي رسوم الدار ويتحسر على الشباب لما يتذكره من ايام لهوه وعزه ، ويخاطب رفيقيه ويخبرهما بان فراق الاحبة قد صدع قلبه وآذاه .

٩ - ١٠

يصف فيها جرير الناقة التي ارتحل عليها مسليا نفسه عن الاحبة الذين ارتحلوا عن الديار .

١١ - ١٤

يبدأ جرير بهجاء الفرزدق ويصفه وقومه بالجبن ، وانهم عبيد اذا تعرضوا لقوم جرير فكأنهم يتعرضون للمستحيل وهو كمن يروم نقل جبلين من مكانيهما .

١٥ - ١٨

يفتخر جرير على الفرزدق بان فرسان قومه شجعان سبق لهم ان انتصروا على الملك النعمان ، وانهم كانوا اشداء على الملوك ملوك العرب والفرس وعدد اسماء فرسان قبيلته .

١٩ - ٢٠

فيها خطاب للاخطل وتهديد بأنه قد عرض نفسه بسبب تفضيله للفرزدق عليه وعرض نفسه وقوم قبيلته تغلب للهجاء ، وانه سيجدع انوف قومه ويذلهم ، وان قصائده في الاخطل قد وسمتهم وستبقى عارا عليهم .

٢٢ - ٢٤

فيها سخرية من الاخطل بسبب دخوله المهاجاة وهو غير مؤهل لها لانه من تغلب ، والتغلبي كما يتهمه جرير ذليل جبان ، والتغلبية مهانة يكفي ان مهر زواجها رخيص وقليل وتافه (فلسان)

قصيدة الفرزدق

اما قصيدة الفرزدق فقد بدأها دون مقدمة ، وكأن قصيدة جرير في هجاء صاحبه قد اثارته ولم تترك له فرصة الاخذ بالمقدمة الطللية فشاء له حماسه ان يبدأ بنقض قول جرير .

١ - ٣

يبين فيها الفرزدق ان هجاء جرير لتغلب لاقيمة له وهو غير مؤثر يضيع صداه في بحرين متلاطمين بحره ، وبحر الاخطل ، وان تغلب العظيمة قد فضلت الفرزدق على جرير .

٤ - ١٥

يذكر الفرزدق هنا فرسان تغلب وينص على ذكر الهذيل وفروسيته وقيادته للجيش ، كما ذكر الحوفزان وبتاريد على فخر جرير وماذكره من أسماء فرسان قومه ، ويتهم الفرزدق قوم جرير بالجبن .

١٥ - ٢١

يعود الفرزدق الى ذكر فرسان تغلب دفاعا عن الاخطل وقومه ، فمجد تغلب قديم بينما مجد جرير حديث فهم لااصالة لهم ، وان تغلب هي التي حمت ديار تميم ولولاها لدخل العدو - العدو الرومي - الى ديارهم ، ويعدد ايام تغلب التي كانت حافلة ومجيدة على المناذرة ، ويصف قوم الاخطل بانهم شجعان كرام ، وانهم لهم عقل راجح اذا وزنوا مكانته بمكانة غيره رجحوا مكانته يشير الى رأي الاخطل بتفضيله على جرير .

قصيدة الاخطل

اما الاخطل فقد بدأ قصيدته بمقدمة خمرية بدأها بلوم العادلات بشربه الخمرة .

١ - ٣

يصر الاخطل على التصريح بشرب الخمر وسقيه لصاحبه منها ، وانه في نشوة الخمر ويتذكر نبات جميلات كان له معهن عهد ، ريا وابان ، وام الحارثية ، وقد اهدى للاخيرة منهن مديحا شاع على كل لسان ، وهذا يؤكد ان ذكره للفتيات ليس على طريقة الغزل والحب المعروفة في ابداء الشوق والوجد وانما تذكره لهن وامتداحهن جزء من الذوق العام او المجاملة ، ولذلك وصف جمالهن وصفا جماعيا فهن كصور المها ، وفي ايديهن الحناء .

٨ - ١٢

حديث الشيب اكثر الاخطل من ايراده كما اكثر منه جرير في قصائده ايضا وهو ان النساء اذا رأين الشيب انكرنه وهجرن صاحبه وانهن يقطعن الوصال كل هذا ليصل الى الفخر بنفسه بانه وفي لايقطع وصال مودته اذا تغير اصحابه ، وانه مؤدب لايطيل زيارة اخيه مع حبه له .

١٢ - ١٨

من هذا الفخر ينتقل الى هجاء جرير . فالاخطل يفخر بكونه وفيا ذا خلق وانه ليس كمثل قوم أذلاء شنوا حربا عليه ويبدأ بهجاء القوم وهم بنو كليب يريد بذلك جريرا ويدعو على كليب بالقبح لانهم لايحفظون محارم جيرانهم ، ولا يقرأون القرآن ، ولاينجدون من يلجأ اليهم .

١٨ - ٢٨

يخاطب الاخطل جريرا بانه يفخر بما ليس له ولا لقومه فما ذكره من مآثر ليس لبني كليب انما هو لدارم قوم الفرزدق ، فالمجد لهم واذا افتخر بالآباء والاجداد فالفخر بآباء الفرزدق واجداده ، ويذكر يوما من ايام العرب ، فالموازنة بين يربوع قوم جرير ودارم قوم الفرزدق مستحيلة لان دارما كالطوفان بكثرة جيوشها وفرسانها ..

ومن خلال ملاحظة هذه القصائد والنظر اليها-نظرة عامة يتبين لنا :

١- ان جميعا قامت على اكثر من غرض فجرير بدأها بمقدمة طللية وتبعها بهجاء ثم فخر وتعداد لمآثر قومه وايامهم والاخطل بدأ قصيدته بمقدمة خمرية تبعها بهجاء ثم فخر وهجاء ومديح لقوم الفرزدق ، اما الفرزدق فان قصيدته بلا مقدمة تقليدية بدأ هجاءه مباشرة مبديا حماسه لنصرة الاخطل وقومه وكأن حماسه للرد على جرير لم يمهله ليقف على الاطلال .

اما الاخطل فان نصرانيته تشفع له ان يبدأ بعض قصائده بذكر الخمرة والتغني بها على طريقة الاعشى ، فدينه يسمح له ، والمجتمع لايعترض عليه ، كما ان الدولة لاتمنعه لانها تعرف ان الخمرة مباحة له في دينه .

٢- لما كانت النقائض قائمة على الهجاء ونقض مايقوله الخصم الشاعر فان البادئ هنا هو جرير ، وقد بدأ بتعداد فوارس قومه ، وشتم تغلب ، ووصفها بالعبودية والذلة فما كان من الفرزدق الا ان ينقض قوله ويعكس هذه الصورة فيعدد فوارس تغلب - قوم الاخطل - ويذكر انتصاراتهم . واما الاخطل فانه حين اراد ان ينقض قول جرير في هجاء صاحبه الفرزدق فانه يذكر صورة قبيلة جرير الذليلة وانه يفخر بما ليس في قومه فالمجد كله في قوم الفرزدق والفرسان العظماء هم فرسان دارم وكل المثل والاخلاق الكريمة تتمثل في دارم - قوم الفرزدق - .

٣- ذكر جرير فرسان قومه الذين انتصروا على الفرس والروم فنقض الفرزدق هذا المعنى واخذ يعدد فرسان تغلب الذين قتلوا فرسان كليب وانه لولا فوارس تغلب لغلب العدو على الديار الا ان تغلبا حمتهم بعزها وفرسانها ، واما الاخطل فأنه ينقض قول جرير بتعداد قوم الفرزدق وذكر ايامهم وانتصاراتهم .

٤- ذكر جرير صورا عديدة تمس دين الاخطل وانه سكران ، ولاتجوز شهادة من يشرب الخمر ، ولايجوز الاخذ بحكمه ، وان ابناء تغلب اذا قتلوا تلقتهم الملائكة بالقبح لانها تعرف قبح اخلاقهم . فنقض الفرزدق هذه الصورة وذكر مآثر قوم تغلب وفخر بهم دون ان يشير الى صورة جرير المارة الذكر . اما الاخطل فانه واجه جريرا بهجاء ينقض صورته فقومه على خلق عالٍ يحفظون حرمة الجار شجعان كرام اما قوم جرير فانهم لايقرأون القرآن فبأي شيئ يفخر جرير .

٥ـ القصائد حافلة بتراث القبائل التي ينتمي اليها الشعراء فهي تعد سجلا لمآثرهم وايامهم وحروبهم وسجلا لاسماء ابطالهم وفرسانهم بغض النظر عن نقض الشاعر الفخر الاخر او مديحه .. لذلك نستطيع القول اننا نجد في مجموع شعر النقائض مادة وفيرة تتعلق بتاريخ العرب قبل الاسلام ، مادة توضح الكثير من المعلومات عن علاقة القبائل بعضها ببعض ، وعلاقتها بالدول المجاورة خاصة اذا راجعنا في هذا الشأن امهات الكتب التي شرحت النقائض وعلقت على الابيات من خلال الموروث التاريخي والادبي كشرح نقائض جرير والفرزدق لابي عبيدة ، ونقائض جرير والاخطل لابي تمام(٤٨٣).

٦ ـ ان المتتبع لشعر شعراء النقائض يلحظ اختلاف طرائق تعابيرهم في الخطاب باختلاف مايتحدثون عنه ، وباختلاف المعاني التي ينقضونها ، فهم بين اسلوب الخطاب المباشر ، او الحديث بلغة المفرد ، او الجماعة سواء المخاطبين منهم او الغائبين ، فجرير حين يفخر بنفسه ، ويتطرق الى قضاياه الشخصية يتحدث بلغة المفرد ، فهو اذا تذكر الشباب والنساء في مطلع قصيدته استخدم اسلوب المتكلم المفرد ، لان المعنى يخصه وحده فيورد مثلا :
(قد زرت ، راجعت ، عرفت ، راعني .....)

وحين يعمد جرير الى هجاء الاخطل او الفرزدق فانه يستخدم ايضا صيغة المفرد على سبيل الخطاب او الغائب : (لما جبنت ، كذب الفرزدق ، قل للمشور ، جدعت ، اعترف ...) او قد يلجأ الى الخطاب المباشر باسلوب النداء (ياالخيطل ، ياعبد تغلب ، ياذا العباية ...)

ونجد مثل هذا عند الفرزدق الذي يخاطب جريرا في هجائه بمثل قوله (اسأل بتغلب ، نزل العدو ، اهجوتها ...) او يخاطبه بصيغة النداء : (ياابن المراغة ...) والاستفهام اما الاخطل فانه يخاطب جريرا ايضا بصيغة الافراد والاستفهام (اجرير ، اتعد ، انسيت ...) او المفرد والخطاب مثل (واذا وضعت سمعت ...)

ويلجأ الاخطل في مقدمة قصيدته ايضا الى الحديث الفردي لانه يبدأها ايضا على نهج طريقة جرير بالحديث عن نفسه فيتحدث بالمفرد (سقيت ، ذكرت ، انني مهد ، لاقيت ، فرق ...) واذا اراد شاعر النقائض هجاء قبيلة صاحبه او الفخر بقبيلته لينقض ماورد من هجاء في شعر هاجيه فانه يلجأ الى صيغة الجمع في حالتي الغائبين او الحاضرين او المخاطبين فجرير يفخر بقبيلته بمثل قوله (شهدوا ، تركوا ...) وقد يفخر بها بلغة المتكلم (الجمع) لينقض

(٤٨٣) طبع الاول في ليدن ١٩٠٥ وطبع الثاني في بيروت ١٩٢٢ .

هجاء صاحبه ، ولانه يشعر فعلا انه ينوب عن قبيلته عنها في الفخر ، او الرد على الهاجين من اعدائها (انا لنغتصب الملوك ... ويخاطب قوم الاخطل هاجيا بصيغة الجمع (تقايستم جعلتم ...)

اما الفرزدق فانه يرد على هجاء جرير لصاحبه الاخطل فيتحدث عن قوم تغلب وان لم يكونوا من قبيلته - بلغة الجماعة ايضا لانه قد جند نفسه فعلا للدفاع عن تغلب التي تعرضت لهجاء جرير بسبب دخول الاخطل في المهاجاة ولكنه يستخدم صيغة الغائبين (وردوا ، تركوا ، هم قتلوا ، قوم اذا وزنوا ...)

وهكذا نجد في شعر النقائض صورة حية للمجتمع العربي في العصر الاموي . ولمكانة الشاعر فيه ، فشعراء النقائض برزوا اشخاصا لهم سماتهم الفنية والشخصية في اهاجيهم ، ولكنهم في الوقت نفسه لجأوا الى احياء مكانة الشاعر في عصر ماقبل الاسلام حيث وجدناه مدافعا عن قبيلته مسجلا بطولات ابطالها وفرسانها مفتخرا باعجادها وايامها .. رادا على الشاعر الهاجي نقيضته .. وهكذا نستطيع ان نجد في النقائض اتجاهات الهجاء في العصر الاموي كافة من الهجاء الشخصي ومايحمله من سمات العصر ، الى الهجاء القبلي الذي يمثل انبعاثا لظاهرة عرفت قبل الاسلام .. الى هجاء سياسي حين يستغل شاعر النقائض موقف قبيلة المهجو من حدث سياسي ما، فيحاول اقحامه ليكون جزءاً مما يهدمه من اعجادها ، وصورة لما يبنيه لاعجاد قومه انطلاقا من موقفها السياسي ايضا وكان من الطبيعي ان نلحظ ملاحظة اخرى في اسلوب النقائض وهي اننا نجد تشابها كبيرا في المعاني التي يطرقها الشعراء الثلاثة وذلك بسبب طبيعة النقائض نفسها ومايقتضيه موقف الهجاء من هدم كل معنى اورده الشاعر الاول في نقيضته فيحوله من فخر الى هجاء متخذا من المعنى المفتخر به مادة للسخرية منه ، ومنطلقا منه لاستداد معنى الفخر بقبيلته وتحويل الفكرة نفسها من هجاء الى مديح . مما يجعل معاني شعراء النقائض متداخلة متشابهة ولكن ذكاء الواحد منهم وقدرته الفنية تتجلى في مدى قدرته في الاستفادة في المعنى الواحد وتوظيفه الوجهة التي يريدها .

٧ - وهناك سمة مهمة اخرى تجدها في أشعار النقائض وهي لجوء اصحابها الى السخرية في احيان كثيرة ، والى المجون الساخر في احيان اخرى ، وشواهدها في شعر النقائض كثيرة تدلنا على تفتح الذهنية العربية لتشقيق المعاني واستنباط الصور وايرادها ايرادا ساخرا يثير الضحك في نفوس السامعين او يثير الاشمئزاز لما فيه من مجون ورفث وهي صور لم يخل منها شعر شاعر من شعراء النقائض اورد منها جرير والفرزدق اكثر من صاحبيها الاخطل وهو امر لم نتطرق له ، ولم نتمثل به في القصائد المختارة ..

محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

اغراض شعرية قديمة ومتطورة (الرثاء)

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

٣ ـ الرثـــاء

يعد الرثاء من الاغراض التقليدية في الشعر العربي لانه مرتبط بالنفس الانسانية والحقيقية الازلية التي تتجلى في ان نهاية كل كائن حي الى الموت والزوال مما جعل الشعراء يبكون على موتاهم او قتلاهم ويسجلون ذلك شعرا ، الا ان هذا البكاء فيه جانبان ، الاول تسجيل مشاعر الراثي واظهار لوعة حزنه وفجيعته والثاني بيان مكانة المرثي وتابينه اي ذكر خصال الخير التي عرف بها في زمانه ، من هنا صور الرثاء عناصر الخير والمثل الاعلى في المجتمع فهو مثل المديح ، الا انه يخص ممدوحا غائبا عن الوجود وهو المرثي . من هنا وجدنا الرثاء في العصر الاسلامي يصيبه تطور كبير في العنصرين اللذين يشكلان جوهر المرثية ، ففيما يخص العنصر الاول وهو اظهار اللوعة والحزن والفجيعة فاننا وجدناه يتطور تطورا كبيرا عند شعراء الدعوة الاسلامية اذ تختفي معالم اليأس والحزن القاتل الى وجهة اسلامية خاصة ظهر في رثاء الشهداء اذ يشير الشعراء الراثون الى ان هؤلاء الشهداء مافقدوا من الحياة الدنيا الا ليهنأوا بالحياة الآخرة حيث ثواب الله للمجاهدين والشهداء في الجنة ، ومع ان الحزن على فقد الاحبة عاطفة انسانية لاتختلف باختلاف العصور الا انها كادت ان تبهت في فجر الدعوة الاسلامية لتحل محلها صورة البشرى لتلقي الشهداء ثواب الله في الجنة ، وهذا يواكب طبيعة الدعوة التي اقتضت من المسلمين ان يصبروا ويجاهدوا في سبيل الله لايثبط عزائمهم موت عزيز او استشهاد قريب بل العكس من ذلك وجدناهم يتخذون من استشهاد المسلمين مادة ينطلقون منها لتثبيت نفوس المؤمنين على الايمان ، وتقوية عزائمهم مع اقترانه في بعض الاحيان بالحزن ـ حزن النفس الانسانية الطبيعي ـ فاذا اراد الشعراء بيان العنصر الثاني من عناصر المرثية وهو تعداد مناقب المرثي ومدحه بما عرف به في حياته وجدنا اثر الاسلام في هذه المناقب واضحا حين تقترن المناقب بسيرة المرثي الاسلامية وبقربه من النبي (ﷺ) وادائه واجب الشهادة والتزامه بمبادئ الدين الاسلامي الحنيف وتظهر هذه المعاني في مراثي كثير من شعراء المسلمين لقتلاهم ، فهذا حسان بن ثابت يرثي حمزة بن عبدالمطلب وقد قدمت ابنته تسأل عن قبره فيجيبها حسان بتأبين القتيل وذكر خصاله ، وتكون البداية اقرب الى مراثي الجاهليين في البيتين الاولين حين يصفه بانه سيد قومه ، شجاع مغوار في الحرب ، وكريم يستبشر وجهه للعطاء وهو فوق ذلك ثابت الجنان صابر في المعارك :

تســـائـــل عن قرم هجـــان سميـــدع
لـدى البـأس مغـوار الصبـاح حسـور (٤٨٤)

اخي ثقـــــة يهتز للعرف والنـــــدى
بعيـــد المـــدى في النـــائبـــات صبـور

واذا كان تعداد هـذه الصفـات على طريقـة عرب مـاقبل الاسلام فلأنهـا صفـات استمرت في العصر الاسلامي على انهـا مثل عليـا للرجولـة والبطولـة ، ومع ذلـك يتضح الاثر الاسـلامي في الابيات الاخرى التي تليها حين يذكر البنت المفجوعة بأبيها بان الاستشهاد في سبيل الله راحة ابدية في الجنة ، ويذكرها بصفات ابيها الاسلامية ويصفه بأنه كان وزير رسول الله وانه اجاب دعوة الرسول واجاب داعي اللـه في الجهـاد فلقي مـاكان يرتجيـه من شرف الاستشهـاد في سبيل الله والعقيدة :

فقلت لهـــا ان الشهـــادة راحـــة
ورضـــوان رب بـــأمـــام غفـــور

فـــان ابـــاك الخير حمـــزة فـــاعلمي
وزير رســـول اللـــه خير وزير

دعـــاه الـــه الخلـــق ذو العرش دعـــوة
الى جنـــة يرضى بهـــا ومزور

فـــذلـــك مـــاكنـــا نرجي ونرتجي
لحمـــزة يـــوم الحشر خير مصير

وبعد هذه الصفات الاسلامية التي يصف بها المرثي يعود الى اظهار حزنه والمه لفراقه ولكنه حزن مقترن بالاستشهاد والشهادة ، ومابعدها :

فـواللـه مـاانسـاك مـاهبت الصبـا
ولأبكين في محضري ومسيري

على أســد اللـه الـذي كان مـدرهـا
يـــذود عن الاســـلام كل كفـــور

(٤٨٤) العزم السيد المعظم ، الهجان الكريم النسب ، السميذع الشجاع .

الاليت شلـــــوى يـــــوم ذاك واضلعي

اقـــول وقـــــد اعلى النعي بهلكـــــه الى اضبـــــع ينهشنني ونســـــور(٤٨٥)

جـــزى اللـــــه خيرا من اخ ونصير(٤٨٦)

وفي قصيدة اخرى تنسب الى كعب بن مالك او عبدالله بن رواحة يذكر الشاعر حزنه ولوعته على فقد جعفر الشهيد ولكنه يسلي نفسه بالدعاء له بالجنة ، ويذكر المسلمين بوجوب الصبر لان الرسول (ﷺ) وهو اقرب الناس الى الشهيد صابر محتسب الاجر في فقده لعمه :

عليـــك ســـلام ربـــك في جنـــان

يخـــــالطهـــــا نعيم لايـــزول

الا يـــاهـــاشم الاخيـــار صبرا

فكل فعـــــالكم حسن جميـــل

رســـول اللـــــه مصطبر كريم

بـــأمر اللـــه ينطـــق اذ يقـــول(٤٨٧)

ويقارن كعب بن مالك بين قتلى المشركين وقتلى المسلمين مقارنة قائمة على العقيدة الاسلامية فيقول بعد ان ذكر شماتة قريش بمقتل حمزة ويذكرهم بقتلاهم الذين قتلهم المسلمون ببدر يقارن بين قتلى الطرفين :

شتـــان من هـــو في جهنم ثـــاويـــا

ابـــدا ومن هـــو في الجنـــان مخلـــد(٤٨٨)

وتتكرر عناصر الرثاء الاسلامي في رثاء المسلمين للنبي (ﷺ) فقد ورد في معظم هذه المراثي ذكر صفات النبي الخلقية الزاكية وتأكيد حزن الشاعر والمه لفقد شخص الرسول (ﷺ) النبي الذي هدى الامة الى طريق الخير وعلمها الرسالة السماوية ، اما تسلية الشعراء انفسهم من الحزن

(٤٨٥) مدره : زعيم

(٤٨٦) ديوان حسان ١٠٥

(٤٨٧) الاصابة ٣٥٣/١ ـ الاستيعاب ٣٧٥/١ ، شعر الدعوة ٤٤٤ ديوان كعب .

(٤٨٨) ديوان كعب/١٩١ ـ

فانهم يذكرون ماورده الله في كتابه الكريم من وجوب الموت ، وان لكل انسان اجل لايتقدم ولايتأخر ، ولكن فراق النبي (ﷺ) هو الذي يدعوهم الى البكاء وقد اشار احد الشعراء الى انه حين يبكي الرسول (ﷺ) ويتذكر مصيبة المسلمين بفقده يقول انا لله وانا اليه راجعون لان الله تعالى ذكر في كتابه المحكم «والذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون»

فلـــو رد ميت قتـــل نفس قتلتهـــا
ولكنـــه لايـــدفـــع المـــوت دافـــع
قـــاليت لا أثني على هلـــك هـــالـــك
من النـــاس مـــــاوفى ثبير وفـــارع
ولكنني بـــــاك عليـــــه ومتبـــع
مصيبتـــه انى الى اللـــه راجـــع(٤٨٩)

اما حسان بن ثابت فانه يقف على الديار ويبكي الاثار ولكن اي ديار واي اثار اهي ديار الجاهلية واثار الحبيبة ، لا انها ديار الرسول (ﷺ) واثاره التي تظهر امام عيني الشاعر في كل درب وزاوية في المدينة المنورة التي صاحبهم فيها الرسول (ﷺ) فهو يقف بطيبة (المدينة) ويبكي الاثار ، ولكنه بكاء لايشبه بكاء شاعر ماقبل الاسلام ، والاثار لاتشبه اثار الاحبة الراحلين ، فهذه التي يبكيها حسان اثار باقية واضحة المعالم لاتزول - ولن تزول - انها اثار النبوة الباقية والمتمثلة بالمسجد الذي كان يجلس فيه النبي (ﷺ) واليوم يجلس فيه المسلمون تقرأ فيها ايات الذكر الحكيم باق واضح السمات وحجرات الرسول (ﷺ) باقية ورسومها تتجدد ولاتندثر :

بطيبـــــة رسم للرســـول ومعهـــد
منير وقـــد تعفـــو الرســـول وتهـــد
ولاتنحي الايـــــات في دار حرمـــــة
بهـــا منبر الهـــادي الـــذي كان يصعـــد
وواضـــح آيـــات وبـــاقي معـــالم
وربـــع لـــه فيـــه مصلى ومسجـــد

(٤٨٩) الطبقات الكبرى ٣٢٠/٢ شعر الدوعة ٣٩٧ والشعر لعبدالله بن انيس

بـــا حجرات كان ينزل وسطهـــــا

من اللـــه نـــور يستضـــاء ويـوقـــد

معـــالم لم تطمس على العهـــد ايهـــا

اتـــاهـــا البلى فـــالاى فيـــه تجـــدد

عرفت بهـــا رسم الرســـول وعهـــده

وقبرا بـــــه واراه في التراب ملحـــد

ثم يقف متذكراً خلق النبي (ﷺ) وصفاته فيعددها واحدة بعد الاخرى بنفس اسلامي ورؤية اسلامية فهو لايرثيه لشخصه بقدر مايرثيه بانه نبي الامة هداها من الضلالة والجهل الى الهدى والنور والعقيدة وانه كان رؤوفا بالمسلمين كثير العفو عن الزلات عطوفا على صغيرهم وكبيرهم تحدوه رغبة كبيرة في اداء الرسالة السماوية وهداية قومه الى الحق ، وهو اطيب الناس خلقا واكرمهم اصلا وادبا لان الذي ادبه هو الله تعالى حين ارسل اليه النبوة . ويختم قصيدته بان يعزى نفسه ويؤملها باللقاء القريب مع النبي محمد في جنة الخلد (٤٩٠).

هذه القيم الاسلامية التي دخلت في الرثاء تستمر في قصائد الشعراء في عصر صدر الاسلام والاموي ولكن نسبة ورودها تختلف باختلاف الشاعر واختلاف المرثي فتتجلى هذه المعاني كلما كان المرثي مرتبطا بحدث سياسي او ديني متلازم اسمه مع قضية من القضايا وتظهر هذه المعاني اذا كان الشاعر متمثلا لها واعيا لاهميتها وتأثيرها في نفوس السامعين وتخف في بعض القصائد اذا كان الشاعر يرثي شخصاً قل ارتباطه بالعناصر التي كونت المجتمع العربي آنذاك مثلما نراه في رثاء متمم بن نويرة لاخيه مالك ، فالاخير قتل في حروب الردة خارجا على الدولة الاسلامية ولكن اخاه متما اسلم وحسن اسلامه ولم يرتد ولم يشارك في حروب الردة ومع ذلك فقد رثى اخاه اروع الرثاء خاصة قصيدته العينية التي مطلعها :

لعمري ومـــادهري بتـــأبين هـــالـــك

ولاجـزع ممـــا اصـــاب فـــاوجعـــا

(٤٩٠) ديوان حسان ص ٨٩ فما بعدها

واذا راجعنا رثاءه لاخيه وجدناه رثاء قائما على عناصر جاهلية اذ تتوالى صور التأبين وكأن صاحبها لم يعش في الاسلام ولم يسمع بمبادئه (٤٩١). وقد مر بنا تفصيل ذلك في تحليل قصيدته العينية .

وعلى اية حال فرثاء متمم بن نويرة لاخيه او شعره عموما لايقاس عليه لان العناصر الاسلامية والمثل الجديدة التي عرضناها من قبل استمرت في السيطرة على القصيدة الرثائية مع المثل العليا التي كانت في الجاهلية واقرها الاسلام مثل الشجاعة والكرم والحياء .

واذا راجعنا مراثي الشعراء للخلفاء الراشدين وجدناها تدور حول المعاني الاسلامية والصفات الخلقية التي يتسمون بها وتقترن بصفات اسلامية امر القرآن الكريم بالتحلي بها ، فالابيات المشهورة التي قيلت في رثاء الخليفة عمر بن الخطاب تؤبنه من خلال وصفه بالامام ـ امام المسلمين ـ وان الله هو الكفيل به وهو الذي سيجازيه خيرا عن سيرته في حياته الدنيا ، اما سيرته فهي العدل والبر والتقى ، والحكم بين الناس بسنة الدين القويم :

جزى الله خيرا من امير وباركت
يد الله في ذاك الاديم الممزق
قضيت امورا ثم غادرت بعدها
بوائق في اكمامها لم تمزق
وكنت تشوب العدل بالبر والتقى
وحكم صليت الدين غير مروق
امين النبي في وحيه وصفيه
كساه المليك جبة لم تمزق
من الدين والاسلام والعدل والتقى
وبابك من كل الفواحش مغلق (٤٩٢)

(٤٩١) راجع كتابنا مالك ومتمم بن تويرة اليربوعي (الدراسة) وراجع تحليل القصيدة في المبحث الثاني من هذا الكتاب .

(٤٩٢) البيان والتبين ٣٦٣/٣ ، الطبقات الكبرى ٣٣٢/٣ وشعر الدعوة : ٤٣١

اما الخليفة عثمان فقد اضيفت في رثائه معان اخرى غير التي ذكرت في رثاء الخليفة عمر (رض)، وهي وصفه بالشهيد، وذكر جهاده مع شيخوخته، ومدارسته لكتاب الله، يقول تميم بن مقبل :

يبك بنو عثمان مادام جذمهم
عليه بأصلال تعرى وتخشب

ليبكوا على خير البرية كلها
تخونه ريب من الدهر معطب

بمدارسهم ام الكتاب ونفسه
تنازعه وثقى الخصال وينصب(٤٩٣)

ويرثي ابو الاسود الدؤلي الامام علي بن ابي طالب ويبكيه من خلال صفات الايمان والاسلام فهو امير المؤمنين واقرب الناس الى النبي (ﷺ) وحبيبه وصفيه، اقام الحق وكان يقرؤهم آيات القرآن ويصلي في الناس احسن الصلاة فيكون قدوة للمسلم التقي العادل وفوق هذا وذاك فان الخوارج قتلوه في شهر الصيام :

الا ياعين ويحك اسعدينا
الاتبكي امير المؤمنينا

وتبكي ام كلثوم عليه
بعبرتها وقد رأت اليقينا

الا قل للخوارج حيث كانوا
فلا قرت عيون الحاسدينا

في شهر الصيام فجعتمونا
بخير الناس طرا اجمعينا

وكنا قبل مقتله بخير
نرى مولى رسول الله فينا

(٤٩٢) ديوان تميم بن مقبل: ١١ فما بعدها

يقيم الحـــق لايرتـــاب فيـــه

وليس بكاتم علمـــا لـــديـــه ويعـــدل في العـــدى والاقربينـــا

ولا واللـــــه لانسى عليـــا ولم يخلـــق من المتكبرينـــا

وحسن صـــلاتـــه في الراكعينـــا (٤٩٤)

ونتخذ من استمرار الرثاء الجديدة مثالا او امثلة من اشعار الخوارج لانهم اوردوا هذه القيم في رثائهم لقتلاهم اكثر من اي فريق اخر ، فشعرهم يمثل حياتهم واندفاعهم في القتال والحرب وكأنهم نصبوا انفسهم للموت طلبا لرضى الله وثوابه وكأن كل من يقاتلونه خارج على الاسلام مقتاله ثواب والموت في حربه شهادة ، وهكذا نجد ابا بلال الخارجي يرثي جماعته من الخوارج الذين قتلوا في احدى المعارك فيذكر صفاتهم على عادة شعراء الرثاء وكلها صفات لاتتجاوز خلق العبادة والتقوى فيصفهم بأنهم كانوا يقضون ليلهم بالعبادة والصلاة واعينهم تسيل دموعا خشية الله :

الا في اللـــه لافي النـــاس ســـالت

بـــداود واخـــوتـــه الجـــذوع

مضـــوا قتـــلا وتمـــزيقـــا وصلبـــا

اذا مـــــاالليـــل اظلم مـــابـــدوه تحـــوم عليهم خيـــل وقـــوع

فيسفر عنهم وهم ركـــــــــوع

اطـــار الخـــوف نـــومهم فقـــامـــوا

واهـــل الامن في الـــدنيـــا هجـــوع

يعـــالـــون النحيب اليـــه شـــوقـــا

وان خفضـــوا فريهم سميـــع (٤٩٥)

(٤٩٤) ديوانه

(٤٩٥) شعر الخوارج : ١٢

ويذكر الحارث بن كعب الشني صاحبا له من الخوارج فيبكيه بكاءً حارا ثم يذكر خصاله بانه كان شجاعا لايخاف الا الله تعالى ، لذلك تراه مجاهدا في سبيل اعلاء الحق في الوقت الذي تخاذل فيه غيره ورضي بحكم الجور والظلم :

لهفي عليك لهفات قد ابلى عظامي وشفها

واسهر ليلي ذكر عون بن احمر فتى كان لايخشى سوى الله وحده

ويطمع في معروفه كل مقتر يجاهد في الله ابنُ احمد صادقا

اذا ما ارتضى بالجور كل مقصر[٤٩٦]

وتتكرر هذه المراثي في قتلى الخوارج ، ونجد مثيلا لها في رثاء الشعراء للحسين وانصاره اذ اوردوا في قصائدهم كل القيم الاسلامية التي تقال في ميدان الشهادة والجهاد الا انها اتسمت فضلا عما ذكرناه بسمة الحزن العميق تارة ، ولوعة الثأر او تأمل من يقوم بالمطالبة بحق آل البيت تارة اخرى وهذه سمة ميزتهم عن رثاء شعر الخوارج الذين اختفت من اشعارهم هذه السمة وحلت مكانها الرغبة في تتبع طريق المرثي مما سنراه في تحليلنا لاحدى قصائدهم .

[٤٩٦] شعر الخوارج ٢

محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

قصيدة عمرو بن الحصين وتحليلها

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

قصيدة وتحليل

قال عمرو بن الحصين يرثي ابا حمزة الشاري (٤٩٧)

١ - هبت قبيـــــل تبلـــــج الفجر
هنـــــد تقـــول ودمعهـــا يجري

٢ - ان ابصرت عيني مـــــدامعهـــا
ينهـــل واكفهـــا على النحر(٤٩٨)

٣ - انى اعتراك وكنت عهـــــدي لا
سرب الـــــدمـــوع وكنت ذا صبر

٤ - اقـــذى بعينـــك مـــايفـــارقهـــا
ام عـــائر ام مـــالهـــا تـــذري(٤٩٩)

٥ - ام ذكر اخـــــــوان فجعت بهم
سلكـــــــــوا سبيلهم على خبر

٦ - فـــاحببتهـــا بـــل ذكر مصرعهم
لاغيره عبراتهـــــــــــا قري(٥٠٠)

٧ - يـــــــارب اسلكني سبيلهم
- ذا العرش - واشـــدد بـــالتقى ازري

٨ - في فتيـــــة صبروا نفـــوسهم
للمشرفيـــــة والقنـــــا السمر(٥٠١)

٩ - تـــاللـــه القى الـــدهر مثلهم
حتى اكـــــون رهينـــــة القبر

---

(٤٩٧) هو رئيس فرقة الشراة (من الخوارج) . القصيدة من ديوان الخوارج جمع نايف معروف : ١٣٨ .

(٤٩٨) الواكف الدمع السائل

(٤٩٩) القذى : مايسقط في العين ، والعائر الذي في عينه وجع ، وتذري اي تسيل الدمع .

(٥٠٠) تمري : اي تسيل ايضا

(٥٠١) المشرفية سيوف منسوبة الى مشارف وهي قرى من ارض العرب .

١٠- اوفي بـــذمتهم اذا عقـــدوا
واعفُ عنـــد العسر واليسر

١١- متـــأهلين لكل صـــالحـــة
نـــاهين من لاقـــوا عن النكر

١٢- صمت اذا احتضروا مجـــالسهمُ
وزن لقـــول خطيبهم وقر

١٣- الا تجيئهم فـــانهم
رجف القلـــوب بحضرة الـــذكر

١٤- متـــأوهـــونَ كأن جمر غضـــا
للخـــوف بين ضلـــوعهم (٥٠٢)

١٥- تلقـــاهم ألا كأنهم
لخشـوعهم صـــدروا عن الحشر (٥٠٣)

١٦- فهم كأن بهم جوى مرض
أو مسهم طرف من السحر

١٧- لاليلهم ليـــل فيليسهم
فيـــه غـواشي النـوم بـــالسكر (٥٠٤)

١٨- الا كـــذا خلســـاً وأونـــة
حـــذر العقـــاب وهم على ذكر (٥٠٥)

١٩- كم من أخ لـــك قـــد قجعت بـــه
نـــوام ليلتـــه الى الفجر (٥٠٦)

---

(٥٠٢) الغضا ، جمر الغضا يبقى زمنا لاينطفيء

(٥٠٣) الأل : الجأر الى الله بالدعاء ، والحشر : يوم القيامة

(٥٠٤) غواشي جمع غاشية وهو الغطاء ، يريد به النوم

(٥٠٥) الخلس ، الفرصة ، والذعر : الخوف

(٥٠٦) قوام ليلته - كثير الصلاة ليلا

٢٠ـ متـــأوه يتلـــو قـــوارع من
اي القران مفـــزع الصـــدر(٥٠٧)

٢١ـ نصب تجيش بنـــات مهجتـــه
من خوف جيش مشاشة القدر(٥٠٨)

٢٢ـ تراك منـــاتهـــوى النفـــوس اذا
رغب النفـوس دعت الى النـــذر(٥٠٩)

٢٣ـ ومبرء من كل سيئـــــــــة
عف الهـــــــــوى ذي مرة ثنزر

٢٤ـ والمصطلي بـــالحرب يسعرهـــا
بغبـــارهـــا وبفتيـــة سمر

٢٥ـ لاشيء يلقـــاه اسرّ لـــه
من طعنـــــــة في ثغرة النحر

٢٦ـ منهـــارة منـــه تجيش بـــا
كانت عـــواصم جـــوفـــه تجري(٥١٠)

٢٧ـ كخليلـــك المختـــار ادّك بـــه
من مغتـــد في اللـــه او مشري(٥١١)

٢٨ـ خـــواظي غمرة كل متلفـــة
في اللـــه تحت العنبر الكـــدر

---

(٥٠٧) قوارع القرآن الايات التي تنذر من عقاب يوم القيامة

(٥٠٨) نصب : متعب ، مشاشة القدر : جوفها

(٥٠٩) ذو مرة ثنزر : صاحب قوة شديدة

(٥١٠) منهارة صفة للطعنة التي يتمناها الخارجي طريقا للشهادة

(٥١١) المختار هو ابو حمزة المختار بن عوف الازدي زعيم الاباضية الخوارج في العصر الاموي

٢٩- وابن الحصين وهل لـه شبـه
في العرف انى كان والنكر(٥١٢)

٣٠- طلـق اللسـان بكل محكمـة
رآب صـدع العظم ذي الكسر(٥١٣)

٣١- وهم مساعر في الوغى رجح
وخيـار من يمشي على العفر(٥١٤)

٣٢- حتى وفوا للـه حيث لقوا
بعهود لاكذب ولاغدر

---

(٥١٢) ابن الحصين هو علي بن الحصين احد رجال ابي حمزة الخارجي

(٥١٣) رآب : اصلح ، والصدع الفطر والكسر

(٥١٤) المساعر جمع مسعر وهو الشجاع في الحرب فكأنه يوقدها . العفر : التراب

عمر بن الحصين وشعر الخوارج

عمرو بن الحصين العنبري كان من رجال الخوارج وشعرائهم ادرك ابا حمزة الشاري قائد فرقة الشراة (من الخوارج) ورثاه بعد قتله .

لايشغلنا بدء حركة الخوارج ولا اسباب ظهورها هنا انما يشغلنا اشعار شعرائهم - وخاصة المراثي - لانها تصور حياتهم وتفكيرهم ، وحماسهم ... لقد اتخذ الخوارج طريق الحرب والجهاد والمعارضة للسلطة اي سلطة !! وعدّوا كل حكم غير حكمهم جائر ففالوا مغالاة كبيرة جعلتهم يتفانون في القتال والحرب والاستبسال ، وتمني الشهادة ، ويظهر ادبهم صدق مشاعرهم ، وقوة ايمانهم ، والتزامهم بمبادئ الاسلام صوماً وعكوفا على القرآن وقياما الليل تعبدا وتهجدا ، وهم بتعبير آخر مؤمنون بالغوا في اختيار الطريق الموصل الى العدل فخطأوا جميع الامة حاكمة ومحكومة .. لذلك خاضوا حروبا طاحنة اردت بالكثير منهم قتلا في ساحة المعارك ، ومع ذلك صورت اشعارهم صدق مواقفهم ، وقوة عقيدتهم التي تذكرنا بشعر الجهاد والعقيدة في ايام الدعوة الاسلامية .

ومن الممكن ان نتلمس ميزات اشعارهم من خلال مرثية احد شعرائهم وهو الحصين العنبري .

ان اهم ميزة من ميزات اشعار الخوارج هي انه شعر جماعة فتكاد الروح السائدة فيه ان تكون متشابهة مصورة لجماعة خاشعة تتمنى الشهادة في سبيل الله ، تخاف الله وتخشع قلوبهم لذكره ليلهم صلاة وعبادة ونهارهم جهاد وقتال ...

انه شعر بطولة جماعية صور فيه الشعراء بسالة الفرسان كما وجدنا في اشعار شاعراتهم من صورت حياتهم ايضا حتى تمنت ام حكيم - احدى النساء اللائي قمن بقيادة جيش الخوارج وقد حاربت الحجاج ودخلت الكوفة وصلت في مسجدها الجامع ، تمنت ام حكيم هذه الشهادة فقالت :

اصحب رأساً قد سئمت حمله
وقد سئمت دهنه وغسله
الا فتىً يحمل عني ثقله (٥١٥)

---

(٥١٥) ديوان الخوارج ٢٧

اما رثاء شعر الخوارج فهو رثاء عقيدة لاتجد الراثي فيه باكيا فراق المرثي ، متأسفا وانما نجد فيه تمنيا للحاق به ، والسير في طريقه طريق الشهادة ، وتصوير سيرة المرثي بانه التقي والورع الذي كان الموت في سبيل الله غاية مايتمناه ، ولانجد في رثاء الخوارج دموعا باكية على مصير المرثي بل تحس بفرحة الشهادة والثواب الذي يحاول الشاعر ابرازه على انه مصير المرثي وانه الطريق الذي اختاره عن وعيه وبأرادته وانه ايضا يتمنى ان يلقى مصيره وان يسير حذوه في القتال والحرب ...

التحليل

اتخذ الشاعر الحديث عن المرأة مطلعا لقصيدته فهي التي بادرت حزينة مستفسرة متعجبة من رؤيتها الدمع في عين الشاعر وهي التي عهدته شجاعا ثابت الجنان ، وتتساءل ماذا كان احساسه بالفجيعة هو سبب دمعه فيجيبها بان مصرعهم وحده هو الذي ادمع عينيه لانه يتمنى ان يسلك سبيلهم ويدعو الله ان يجعله تقياً مثلهم ، والقصيدة كما ذكر في رثاء ابي حمزة الشاري لكن الشاعر هنا يرثي الجماعة الذين استشهدوا معه ويتمنى ان يلقى مصيرهم نفسه ولكنه لايريد شهادة مفردة وانما يتمنى ان ينالها مع فتية من مقاتليهم ايضا ...

الابيات ٨ ـ ١٨

يصف هؤلاء الفتية بانهم قد صبروا نفوسهم وعودوها على الرماح والسيوف لانهم فرسان اشداء ، فيقسم بالله ان يكون على عهدهم ويوفي بذمتهم حتى يلاقي حتفه ، وهم متأهبون لعمل الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، قليلو الكلام ، واعون لقول قائدهم وخطيبهم ، واذا رأيتهم وجدتهم عاكفين على قراءة القرآن ، وقد اخذ الخوف مأخذه في نفوسهم فهم متأوهون من خشية الله وخوف عقابه ، وكأنهم يخشون ان يباغتهم الحشر والعذاب لذلك يقضون ليلهم ساهرين في قراءة القرآن وتدبر آياته .

الابيات ١٩ ـ ٣٢

يذكر اخوانه الذين فجع بهم ويعيد الاوصاف السابقة من عزوف عن الباطل ورغبة في الخير ، وتعفف عن الشر والسوء ، وشجاعة في الحرب ، ويعدد بعض اسماء القتلى الذين يرثيهم فيذكر ابا حمزة الشاري ، وابن الحصين وغيرهما مما يجعلنا نشعر ان القصيدة لم تنظم في رثاء

شخص وانما هي في رثاء جماعة ، وهي ليست بكاءً ونحيبا بل تمجيد ودعوة الى اكمال مسيرتهم واحتذاء حذوهم ... ومادام الموت سبيل كل حي فحري بالمرء ان يسرع اليه بارادته مجاهدا مقاتلا طالبا رضا الله وطاعته ليلا ونهارا سلما وحربا .. وهكذا تتكرر صور الرثاء في شعر الخوارج حتى لتكاد شخصية الشاعر الراثي ان تكون مختفية في اطار الجماعة كما ان شخصية المرثي هي الاخرى متلاشية في اطار الجماعة التي تحمل السمات الاخلاقية والدينية ذاتها ... ولذلك وجدنا شعر الرثاء عند الخوارج اطول اشعارهم وماسواه من الاغراض الاخرى مقطوعات وابيات مفردة لان الشعراء استطاعوا من خلال الرثاء تصوير صدق عواطفهم وصدق تمثلهم لمواقف اصحابهم فصوروهم بصورة الاتقياء المجاهدين الخاشعة قلوبهم خوفا من الله ، المسارعين الى ساحة الحرب رغبة في الموت والشهادة المطيلي النظر الى القرآن الكريم تدبرا لآياته واحكامه ، وبذا نستطيع القول ان رثاء الخوارج صورة لحياتهم كما ان تمنيهم الشهادة يقرب من صورة تمني الشعراء المسلمين للشهادة في صدر الاسلام واختفاء لوعة الحزن على فراق المرثي يمثل امتدادا للرثاء الاسلامي واصدر الاسلام الذي اكد فيه الشاعر الراثي ان مصير القتيل الشهيد هو الجنة الوارفة الظلال والثواب عند الله تعالى ...

محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

اغراض شعرية قديمة ومتطورة (الغزل)

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

٤ـ الغزل :

اذا اردنا ان نقارن بين الغزل والاغراض الشعرية الاخرى في عصر صدر الاسلام وجدنا تناوتا ليس في المعاني الجديدة التي طرأت على الاغراض الشعرية ، ولكن في مقدار الشعر الذي سجل في هذا العصر ، ومن المعلوم ان الاغراض الشعرية التي عرضناها من قبل استطاعت ان تواكب الدعوة الاسلامية وان تسخر كل غرض في خدمة الدين الجديد او تصوير حدث من احداث الدولة الجديدة . اما الغزل فما كان له ان يأخذ هذا الدور في الادب الملتزم او الموجه لخدمة الدعوة لطبيعة موضوعاته ومعانيه . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان طبيعة موضوع الغزل في عصر ماقبل الاسلام وكونه في الغالب جزءا من موضوعات متعددة تشتمل عليها القصيدة الجاهلية جعل تطوره في عصر الدعوة المبكرة محدودا . فكلنا نعرف ان معظم ماقيل من شعر الغزل في الجاهلية ، قيل في المقدمات الغزلية التي ابتدأ بها الشعراء قصائدهم وبقيت هذه البداية سمة فنية يتبعها الشعراء فيما بعد . فاذا اردنا تتبع ابيات الغزل في عصر الدعوة الاسلامية لم نجد فيها تطورا واضحا كالذي سنجده ونوضحه فيما بعد في العصر الاموي لان الشعراء وهم يبدأون قصائدهم بموضوع تقليدي احسوا بان هذه البداية لاتنسجم مع الموضوع المهم الذين وجهوا اليه اشعارهم وهو موضوع الدعوة الاسلامية ومايريد الشاعر ان يقول فيه مدحا او هجاء او فخرا فجاء تطور القصيدة او المقدمة الغزلية من ناحية اخرى حين وجدنا نماذج لشعراء حاولوا ان يجتزؤا ابيات المقدمة ، لينشغلوا عنها بسرعة الى موضوعهم الذي يشغلهم ويشغل المسلمين كافة ، وهي بدايات لم يلتفت اليها .

ونجد في قصائد حسان الاسلامية التي التزم بها بالشكل الفني للقصيدة العربية لمحات خاطفة تشير الى شعوره بعدم جدوى هذه الافتتاحية مع تعوده عليها ، والتزامه بها من قبل ، فنراه يبدأ القصيدة ببيتين او ثلاثة سرعان مايساوره شعور حاد بضرورة الالتزام بموضوعه الهادف ، فيحيد عن المقدمة باسلوب الردع الذي يستعمل فيه لفظة (دع) وقد مر بنا تفصيل ذلك في شعر حسان .

اما كعب بن زهير فان ابياته المشهورة في قصيدته التي مدح بها الرسول (ﷺ) ليست غزلا بالمفهوم الذي نعرفه وهو التغني بصفات المرأة او الحبيبة ، ذلك ان من يقرأ ابياته يجده واصفا لوعته وحبه لسعاد ذاكرا جمالها في بيت واحد ، اما الابيات التي تليها فهي وصف لغدرها وهجرها ، وتلون مواقفها تمه كتلون الغول لينتقل بعد هذا ، او ليجد المسوغ للانتقال الى

الاعتذار عن مواقفه العدائية من الرسول (ﷺ) ثم يستمر بمدحه :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم اثرها لم يجز مكبول

وما سعاد غداة البين اذ عرضت
الا اغن غضيض الطرف مكحول

وما تدوم على العهد الذي زعمت
كما تلون في اثوابها الغول

ولا تمسك بالود الذي زعمت
كما تمسك بالماء الغرابيل

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا
وما مواعيده الا الاباطيل

نبئت ان رسول الله اوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول

وقد بالغ بعض الباحثين فيما استنتجوه من المقدمة الغزلية هذه فرأوا ان الرسول (ﷺ) قد اكرم كعبا وكساه كسوته لانه اعجب بالقصيدة وجودتها فأثاب عليها ورأى اخرون ان سماع الرسول (ﷺ) لقصيدة كعب واثابته عليها دليل موافقته على ماورد فيها كالمقدمة الغزلية خاصة ... وهو امر يرجح عليه تعليل اخر وهو ان الرسول (ﷺ) كان قد اهدر دم كعب ، وانه لخوفه قدم عليه متخفيا واعلن شهادة لااله الا الله وأمنه الرسول وطمأنه وحين قرأ عليه قصيدته كساه (ﷺ) البردة اعلانا واشهارا لعفوه عنه ليشيع بين المسلمين العفو عنه :

مهلاً هداك الذي اعطاك نا
فلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل (٥١٦)

(٥١٦) ديوان كعب بن زهير ، دار الكتب القاهرة الشعر والشعراء ١٥٥/١ .

وحين تثبت قواعد الدولة الاسلامية ويتوزع الشعراء في رقعتها الكبيرة يجدون متنفسا في الحديث عن قضايا شخصية وذاتية وتتنوع مواقف الشعراء في الدولة فيتنوع من ثم شعرهم واغراضهم الفنية ويصيبها تطور كبير يوافق اتساع الدولة الاسلامية وتوسعها في العصر الاموي . فيتخذ الغزل طابعا جديدا مختلفا عن طابع ماقبل الاسلام في معانيه وكثير من موضوعاته ، ونجد اثر الاسلام بمعانيه وصوره واضحا في هذا الغرض الفني اكثر من غيره ، واذا بالشاعر المتغزل يستمد من معاني القرآن مايعينه على وصف لوعته وحبه ومن التعاليم الاسلامية مايسمح له في ترقيق قلب الحبيبة لتلين في موقفها وهجرها له ويتأثر الشاعر المتغزل بكثير من مبادئ الدين الاسلامي وتعاليمه او بالاحرى بكثير من الصور الفنية الواردة في القرآن الكريم ليصف جمال صاحبته وحبه لها وهذا في رأيي تطور كبير في فن الغزل فاق به غيره في العصر الاموي فضلا عن ان قلوب المسلمين في نجد والبادية زادها الاسلام رقة وعفة وابعدها عن الفحش في الغزل وتصوير المرأة تصويرا ماديا مما خلق ضربا جديدا من الغزل لم يعرفه الادب العربي من قبل وهو الغزل العذري . يقول الدكتور شوقي ضيف واصفا غزل نجد والبادية العذري (فنحن اذا ماتركنا الحجاز والشام ومدنها الكبيرة الى نجد وجدنا العرب هناك يعيشون كما كان اباؤهم معيشة فيها شظف وحرمان ، وقد مسح عليها الدين الجديد بروحية احدثت سموا في النفوس وسموا في الشعر نفسه ، وشاع في هذه البيئة الغزل ، ولكنه تميز فيها تميزا واضحا عن غزل مكة والمدينة .. اما في البادية فكان الغزل عفيفا لان العرب هناك لم يعرفوا الترف ولافسدتهم الحضارة وقد رقق الاسلام نفوسهم وصفاها (٥١٧) ولسنا هنا في مجال المقارنة بين الشعر العذري في البادية والاخر الصراع في المدينة في العصر الاموي انما يهمنا ان نتتبع المعاني الجديدة التي دخلت هذا الفن ، وهي معان دخلت بظهور الاسلام وجاء تعبير الشعراء عنها في فن الغزل تعبيرا طبيعيا لانها تمثل الصور التي تحكم حياتهم وتوجهها وهي صور لم تكن مقتصرة على الغزل العذري فحسب بل تجاوزتها لتدخل الى موضوع الغزل عامة العفيف منه والصريح وسوف نحاول تتبع هذه المعاني لانها تمثل تطورا كبيرا لفن شعري عرف منذ العصر الجاهلي ، ولكن تطور معانيه جاءت طبيعية بسبب سيادة الاسلام ومبادئه ، واستقرار الوضع الاجتماعي في العصر الاموي خاصة .

---

(٥١٧) انظر حديث الاربعاء ١٨٥/١ ، ١٥/٢ ـ ١٨ تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ٢٣٤ ، اتجاهات الشعر في العصر الاموي ٤٢٠ .

فاذا اراد الشاعر ان يجعل صاحبته ترق لحاله ، فانه يصف وجده والام نفسه ويذكرها بعقاب الله لكل من يقتل عمدا ، وهو العاشق الذي تلفت نفسه ويكاد يقتل بسببها يقول العرجي :

فخافي عقاب الله في قتل مسلم
برئ ولم يقتل قتيلا فيقتل (٥١٨)

وقد يدعو الشاعر ربه لكي يرق له قلب الحبيبة ، ويصف موقفه في دعائه وابتهاله لله مصورا شدة لوعته لمن يحب . يقول مجنون ليلى واصفا حاله :

فيا عجبا فين يلوم على الهوى
فتى مدنفا امسى من الصبر عاريا
ينادي الذي فوق السموات عرشه
ليكشف وجدا بين جنبيه ثاويا (٥١٩)

ويقول عمر بن ابي ربيعة داعيا الله تعالى ايضا :

فأجز الحب تحية واجز الذي
يبغي القطيعة حبه هجرانا
آمين ياذا العرش فاسمع واستجب
لما نقول ولاتخيب رجانا (٥٢٠)

ويقول جرير :

رغبت الى ذي العرش مولى محمد
ليجمع شعبا او يقرب نائيا

---

(٥١٨) ديوان العرجي ١٥٥ وانظر اثر القرآن : ١٢٢ .

(٥١٩) ديوان مجنون ليلى ٨ .

(٥٢٠) ديوان عمر / ٥٩ .

اذا العرش اني لست مـــــاعشت تـــــاركا

طـلابي سلمى فـأنض مـاكنت قـاضيـ(٥٢١)

ويقول جميل بثينة وقد بلغ به الوجد مبلَغه داعيا الله ان يرقق قلب بثينة او ينسيه حبها ليستريح :

نبـــارب حببني اليهـــــا واعطني

المـــودة منهـــا انت تعطي وتمنـــع

والا فصبرني وان كنتُ كارهـــــــا

فـاني بهـا يـاذا المعـارج مـولع(٥٢٢)

ويستغيث الشاعر العرجي بالله من ضناه وهواه ليلطف بحاله :

بـــارب اني قـــد شقيت بهـــا

فـألطف فـانـك رب ذو لطف(٥٢٣)

وكون الله تعالى يعلم سرائر النفوس وماتخفي من حب او الم فكرة استغلها شعراء الغزل فيقول النابغة الجعدي واصفا حاله وهو يخفي اسم صاحبته ويكنى بغيرها عنها ، وهو عالم بان الله وحده العالم بما يخفي قلبه :

واكني بغير اسمهـــا وقـــد

علم اللـــه خفيـــات كل مكتم(٥٢٤)

وقد استفاد عمر بن ابي ربيعة من هذه العناصر والافكار التي دخلت لغة الغزل واستعملها لافي بيان حبه ووجده بل في نقل الحوار الذي يدور كثيرا في اشعاره بينه وبين من يحب ، او بينه وبين رسل الحبيبة او العذال فيقول ناقلا ماورد عن لسان صاحبته التي تتهمه بانه لايبقى

---

(٥٢١) النقائض ٧٤١/٢

(٥٢٢) ديوان جميل / ١٨ .

(٥٢٣) ديوان العرجي / ٦٠ .

(٥٢٤) ديوان النابغة الجعدي : ١٥ .

على حب واحد ومع ذلك فهي تحبه بدليل انها تدعو له الله في ان يغفر له ذنوبه :

فتبسمت عجبـــا وقـــالت حقـــه
ان لايعلمنـــــا بمـــــا لم نعلم
علمي بـــه واللـــه يغفر ذنبـــه
فيما بـــدالي ذى هـــوى متقسم(٥٢٥)

وتدعو له اخرى الله المتكبر الجبار في ان يحفظه ويصونه :

نقلت لهـا قـد قـادني الشـوق والهـوى
اليـــك ومـــانفس من النـــاس تشعر
فقـــالت وقـــد لانت وافرخ روعهـــا
كـــلاك بحفـــظ ربـــك المتكبر(٥٢٦)

وذكر جمال الحبيبة عنصر من عناصر القصيدة الغزلية ، ومع ذلك وجدنا بعض الشعراء من يعطيه مسحة خاصة تدل على تطور هذا الفن وتطور لغته فذو الرمة يستفيد من الاية الكريمة التي تصور ارادة الله ومشيئته في ان يقول للشيء (كن فيكون) ، فيصف من خلالها عيني بثينة قائلا :

وعينـــان قـــال اللـــه كـــونـــا فكانتـــا
فعـولان بـالالبـاب مـاتفعـل الخمر(٥٢٧)

ويقول كثير عزة مستفيدا من فكرة نشر الموتى بارادة الله يوم القيامة فيصف جمال صاحبته وتأثيره في النفس ، بحيث يكفي ان تلمس الميت لينشر وتعود اليه الحياة :

والميت ينشر ان تمس عظـــامـــه
مســـا ويخلـــد ان يراك خلـــودا(٥٢٨)

---

(٥٢٥) ديوان عمر : ٢٢ .
(٥٢٦) المصدر نفسه .
(٥٢٧) شعر ذي الرمة : ٢١٣ .
(٥٢٨) ديوان كثير : ٦٧ .

ويلاحظ من خلال هذه الاشعار ان اللغة الشعرية الغزلية قد اصابها تطور كبير بعد الاسلام بسبب رقة المشاعر التي هذبها الاسلام وتوجه فيها الغزل وجهة عفيفة بعيدة عن الفحش خاصة في الغزل العذري وقد ظهر هذا جليا في الشعر المنسوب الى بني عذرة وفي شعر جميل بثينة وكثير وغيرهم ولعل اطرف ماوصل الينا من شعر يمثل تهذيب نفس المحب بسبب تعلقه بمبادئ الاسلام ماذكر من شعر عروة بن حزام - وهو من الشعراء العذريين - يصف فيه شدة مايعانيه من حبه لعفراء بحيث ان هوها يغلبه وهو يؤدي فرض صلاته في الوقت الذي يعرف فيه ان المؤمن الصالح لايخلط بذكر الله شيئا وهو يواجه القبلة . فيتألم لتذكرها ويخاف الله بسبب ذلك ويتساءل ماالذي سيسجله الملكان اللذان يحصيان اعماله واقواله يقول :

اصلي فـــابكي في الصـــلاة لـــذكرهـــا
لى الـــويـــل ممـــا يكتب الملكـ (٥٢٩)

وهكذا فان المتتبع لفن الغزل في هذا العصر يجده قد تطور تطورا كبيرا ماكان له ان يتطور لولا نزول الاسلام والظروف الجديدة التي طرأت في حياة العرب ، ولكن هذا التطور اتخذ سبيلين في العصر الاسلامي - عصر الدعوة اولا اذ ابتعد الشعراء عن قول الغزل الا في مقدمات تقليدية بسبب انشغالهم في الدفاع عن الدعوة والعقيدة حتى اذا استقرت النفوس ، والامور عادوا ليعبروا عما تعانيه نفوسهم من مشاعر واحاسيس ، فكان من ضمن ذلك الغزل ، ولكنهم نظموا كثيرا منه باسلوب متأثر بالقرآن الكريم وبطبيعة الحياة العربية الجديدة .

---

(٥٢٩) شعر عروة بن حزام ٢٧ وقد نسب البيت الجميل في ديوانه ٢٠٠ .

محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة ابتسام مرهون الصفار

قصائد (جميل بثينة ، عمر بن ابي ربيعة) وتحليلها

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

قصيدة وتحليل

قال جميل بثينة :[530]

١ ـ الا ليت ايـــام الصفـــاء جـــديـــد
ودهرا تـــــولى يـــــابثين يعـــود

٢ ـ فنغني كما كنـــــا نكـــــون وانتم
وصـــدق واذ مـــاتبـــذلين زهيـــد[531]

٣ ـ ومـــاانس مـــاالاشيـــاء لاانسى قـــولهـــا
وقـــد قربت نضـوي امصر تريـــد[532]

٤ ـ ولاقـــولهـــا لـــولا العيـــون التي ترى
اتيتـــك فـــاعـــذرني فـــدتـــك جـــدود

٥ ـ خليلي مـــااخفي من الـوجـــد ظـــاهر
فـــدمعي بمـــا اخفي الغـــداة شهيـــد

٦ ـ الا قـــــد ارى واللـــــه ان ربّ عبرة
اذا الـــــدار شطت بيننـــــا ستزود

٧ ـ اذا قلت مـــابي يـــابثينـــة قـــاتلي
من الـوجـــد قـــالت ثـــابت ويـزيـــد

٨ ـ وان قلت ردي بعض عقلي اعش بـــــه
مـع النـــاس قـــالت : ذاك منـــك بعيـــد

٩ ـ فمـــا ذكر الخـــلان الا ذكرتهـــا
ولاالنجـــل الا قلت ســـوف تجـــود

١٠ـ واذ فكرت قـــالت قـــد ادركت وده
ومـــاضرّني بخـــل ففيم اجـــود

---

(٥٣٠) ديوان جميل : ١١ ـ ٦٧

(٥٣١) نغنى : نقيم

(٥٣٢) النضو المهزول من الابل وغيرها .

١١- فـلا انـا مردود بمـا جئت طـالبـا

١٢- جـزتـك الجـوازي يـابثين سـلامـة ولاحبهـا فيما يبيـد يبيـد

١٣- وقلت لهـا : بيني وبينـك فـاعلمي اذا مـاخليـل بـان وهـو حميـد(٥٣٣)

١٤- وقـد كان حبيكم طريفـا وتـالـدا من اللـه ميثـاق لنـا وعهـود

١٥- وان عروض الـوصـل بيني وبينهـا ومـاالحب الا طـارق وتليـد(٥٣٤)

١٦- فـافنيت عيشي بـانتظـاري نـوالهـا وان سهلتـه بـالمنى لصعـود(٥٣٥)

١٧- فليت وشـاة النـاس بيني وبينهـا وابلت بـذاك الـدهر وهـو جـديـد

١٨- وليت لهم في كل ممسى وشـارق يـذوق لهم سما طماطم سـود(٥٣٦)

١٩- ويحسب نسـوان من الجهـل انني تضـاعف اكيـال لهم وقيـود(٥٣٧)

اذا جئت ايـاهن كنت اريـد

٢٠- فـاقسم طرف العين ان يعرف الهـوى

وفي النفس بـون بينهن بعيـد

---

(٥٣٣) بان : فارق

(٥٣٤) طارق : الحديث ، والتليد القديم

(٥٣٥) عروض: الطريق في عرض الجبل في مضيق ، ويريد به الطريق الى وصلها . صعود : يصعب السير فيه ، والوصول الى غايته

(٥٣٦) يذوق : يخلط ، والطماطم جمع طمطم وهو المولى الذي لايبين كلامه اذا تكلم بالعربية .

(٥٣٧) الممسى : المياه ، والشارق وقت الشروق ، الاكبال القيود .

٢١- علقت الهوى منهـا وليـدا فلم يـزل
الى اليـوم ينمى حبهـا ويـزيـد(٥٣٨)

٢٢- يـذكرنيهـا كل ريـح مريضـة
لهـا بـالتلاع القـاويـات وئيـد(٥٣٩)

٢٣- الا ليت شعري هـل ابيتن ليلـة
بـوادي القرى اني اذن لسعيـد

٢٤- وقـد تلتقي الاهـواء من بعـد يـاسـة
وقـد تطلب الحـاجـات وهي بعيـد

٢٥- وهـل ازجرن حرفـا نـواة شملـة
بخرق تبـاريهـا سـواهم قـود(٥٤٠)

٢٦- على ظهر مرهـوب كأن نشـوزه
اذا جـار هـلاك الطريـق وفـود(٥٤١)

٢٧- ومن كان في حي بثينـة يمتري
فبرقـاء ذي ضـال علي شهيـد(٥٤٢)

---

(٥٣٨) وليدا : اي منذ كنت صغيرا ولدا ، ينمى : ينمو ويزيد .

(٥٣٩) التلاع جمع تلعة وهي ماارتفع من الارض ، القاويات المقفرة ، الوئيد : الصوت عامة او الصوت الخفي . اي ان صوت الريح تذكره ببثينة في تلك الديار التي شهدت طفولتيها .

(٥٤٠) الخرف : الناقة الضامرة او المهزولة او العظيمة ، العلاة الناقة المشرفة ، والشملة السريعة ، الخرق القفر والارض الواسعة التي تتخرق فيها الرياح . السواهم : جمع ساهمة ، وهي الناقة الضامرة والقود : الذلولة المنقادة .

(٥٤١) السير . والنشوز جمع نشز وهو ماارتفع من الارض . جاز : اذا ضل ، هلاك الطريق المنتجعون الذين قد ضمو الطريق

(٥٤٢) برقاء ذي ضال : اسم موضع يشير فيه جميل الى حادثة او لقاء له مع بثينة فيه .

٢٨- لئن كان في حب الحبيب حبيبـــــه
حـــدود لقـــد حلت علي حـــدود(٥٤٣)

٢٩- الم تعلمي يـــــاام ذي الـــوعد انني
اضـــاحـــــك ذكراك وانت صلـــود(٥٤٤)

---

(٥٤٣) الحدود : جمع حد وهو العقاب الذي حدّه الله لانتهاك المحرم .

(٥٤٤) ام ذي الودع : يريد بها بثينة المتزينة بالودع (الخرز) .

صلود : بخيلة .

جميل بثينة شاعر الغزل العذري

لقد مر بنا في المبحث السابق تطور لغة شعر الغزل في عصر الاسلام والعصر الاموي تأثرا بالقرآن الكريم ومعانيه واخليته وتوجيهاته . ويمكن الحديث هنا عن تطور الغزل بكونه تيارا شعريا معروفا برز واضحا في العصر الاموي له اعلامه وشعراؤه المعروفون . وقد اتخذ هذا التيار مسارين اولهما عرف بالغزل العذري ، وقد شكل معظم شواهد المبحث السابق وآخر عرف - بين النقاد بالغزل الماجن ، او الغزل الفاضح او الغزل الحسي المتطور اللاهي . وقد مثل عمر بن ابي ربيعة هذا المسار .

واذا كنا قد فضلنا لفظ الصريح على الماجن فلأن بعض مؤرخي الادب قد بالغ في فهم هذا الشعر ومدلوله الفكري والاجتماعي ، وانتزع فيه المدينة ومكة من واقعيها ، التاريخي فصورت المدينتان وكأنها غارقتان في الترف واللهو والنعيم والشباب العاطل اللاهي ، وكأن المدينتين الكبيرتين في الحجاز قد فرغتا للغناء ، وان الناس يختلفون فيهما الى المغنين والمغنيات حتى النساك والفقهاء(٥٤٥) .

ان في هذه النظرة مغالاة ، قد نظر فيها الباحث الى شعر الغزل بمنظار ينظر الى زاوية واحدة حاجبا رؤية الزوايا الاخرى التي يزخر بها المجتمع ومن المفيد جدا الاستشهاد بحكم د. عبد الهادي فضل بشأن اول ملمح - رصده - من الملامح الفنية في الغزل الحضري الحجازي وهو خلوه من المجاهرة بالفحش والالحاح على المعاني المكشوفة والانحراف الى العبارات الفاضحة وماكان لشعرائه ان يجرأوا على هذه المجاهرة او الكشف فاقليمهم منبع الدعوة الاسلامية وموطنها الاول الذي حملها على اكتافه رجاله الى انحاء الجزيرة العربية ومنها الى سائر اقطار الارض . وفي مدينة وبخاصة مكة والمدينة قامت حلقات الدروس الدينية ، وتروى احاديث الرسول الكريم (ﷺ) ، وفي الحجاز عاشت طائفة كبيرة من بقايا الصحابة وكبار التابعين من ابناء المهاجرين والانصار .. يضاف الى هذا حرص اهل الحجاز على قيم الفضيلة واخلاق الدين كل هذا يفرض ذوقا على بيئة الحجاز وشعراء الغزل حق رعاية الفضيلة والدين وان تساهلت معهم في بعض مايعد من ظرف الكلام واخيلة الشعراء ومداعباتهم (٥٤٦)

---

(٥٤٥) انظر العصر الاسلامي : شوقي ضيف ٣٤٧ .

(٥٤٦) ينظر اتجاهات الشعر / ٤١٢ - ٤١٣ .

لقد اتخذ شعر عمر بن ابي ربيعة وشعر الغزل في الحجاز سمة الصراحة بالغزل في ذكر اسماء من يتغزل بهن ، او يشبب بهن او يتخيل احاديث ومواقف وقعت معهن .. ولكن ذلك فهم في حينه على انه خيال شعري ، وترف كلامي ، ورقة تدور جميعها في اطار المجاملة والمسامرة واللهو ..

ولم يختلف الغزل العذري عن الصريح في تصوير العاطفة ورقتها الا ان الشعراء العذريين ابدعوا في تصوير معاني الحب والاخلاص والتشوق الى من يحبون ، فاشعارهم مليئة بالعاطفة الحارة الصادقة واللوعة ، وحرقة الهوى مع التفاني في الاخلاص والمودة لمن يحبون . وشعر الغزل الصريح كعمر بن ابي ربيعة نجح في تصوير عواطف من احبينه ، وشغفن به وتتبعن مكانه حتى عدّ هذا من معايب شعر عمر بن ابي ربيعة انطلاقا من الذوق الاجتماعي العام الذي يرى مهمة الشاعر المتغزل هي ابداء صدق مودته واخلاصه لمن يحب مقابل هذا تصور المرأة المتغزل بها عفيفة ابيّة متمنعة متحفظة !!.

وقد تعددت الفتيات اللائي تغزل بهن عمر بن ابي ربيعة بينما قصر الشاعر العذري حبه على واحدة فجميل بن معمر تغزل ببثينة ، وعروة بن حزام بعفراء ، والمجنون بليلى وغيرهم ..

واتسم الغزل بمساريه العذري والصريح باعتماده اسلوب الحوار والحكاية فكثر تعبير قال ، وقلت ، حتى تحولت بعض قصائد الغزل الى قصص قصيرة يحكيها الشاعر عن نفسه مع صاحبته ، اوصاحباتها(٥٤٧) .

واما رقة اللغة الشعرية في المسارين الصريح والعذري فهو سمة عامة لطبيعة موضوع الغزل ورقته ، التي نلمحها حتى عند الشعراء الذين لم ينصرفوا الى الغزل وانما قالوا فيه بكونه غرضا من اغراض القصيدة المتعددة ونظرة سريعة الى القصائد المطولات في الشعر الجاهلي تدلنا على اختلاف لغة الشاعر الواحد فيها فلغته في المقطع الغزلي رقيقة سمحة جميلة بينما تميل الى الغرابة واختيار الالفاظ الوحشية المصورة لحياة البادية ومافيها من حيوان وطبيعة اذا تحدث عن الرحلة والناقة . وبذا يمكن القول ان لغة الشعر في الغزل الصريح والعذري واحدة الا ان الفاظا بعينها كثر ورودها في الاول تتعلق باللقاء والاحاديث والفرحة واللوعة والفاظا اخرى تدور في اطار الحب والعشق والهجر ، والصبر ، مما يصور عاطفة الشاعر وموقفه ازاء من احب .

---

(٥٤٧) انظر كتاب القصة والحكاية في الشعر العربي - د . بشرى الخطيب مبحث القصص العاطفية في العصر الاموي صفحة ٢٠٥ .

وقد اخترنا قصيدة جميل بن معمر لتكون ممثلة للغزل العذري خاصة والغزل في العصر الاموي عامة .

اقترن اسم جميل بن معمر بشعر الغزل العذري ، فهو شاعر العذريين الغزليين المقدم . نشأ في وادي القرى شمال المدينة فهو من ابناء البادية القريبة من الحاضرة وشعره يمثل فصاحتها وسلامة لغتها ، ونقاوة روح شعرائها من ناحية ويمثل شعره ايضا رقة المدينة واستقرارها لقرب وادي القرى منها (٥٤٨)

بدأ الشاعر قصيدته بالتحسر على ايام الصفاء التي عاشها مع بثينة ، وبدت مقدمته اقرب الى المقدمة الشكلية في القصيدة العربية عامة : اذ انه بعد تمنيه خاطب رفيقيه شاكيا معاناته من وجده ، متحدثا عن بعد ديار الحبيبة ، ومثل هذه الافتتاحية نجدها في اكثر من قصيدة في شعره ، كما وجدناها في شعر غيره شعراء الغزل .

وقد بدأ جميل بعض قصائده بافتتاحيات اخرى ، بدأ بعضها بالوقوف على الاطلال والبكاء على رسمها كقوله :

رسم دار وقفت في ظلله ... كدت اقضي الغداة من جلله (٥٤٩)

ومرة يسأل رسم الديار الذي يهيج عبرته وتساءله كقوله :

ألم تسأل الربع القواء فينطق ... وهل تخبرنك اليوم بيداء سملق (٥٥٠)

وكقوله :

أهاجك ام لا بالمداخل مربع ... ودار باجراع الغديرين بلقع (٥٥١)

---

(٥٤٨) ديوان جميل شاعر الحب العذري. تحقيق : د . حسين نصار : ٨

(٥٤٩) ديوان جميل ١٨٨

(٥٥٠) نفسه ١٤٢

(٥٥١) نفسه ١١٧

وقد يبدأ جميل بعض قصائده بمخاطبة رفيقي السفر ، ولكنه لايطلب منهما الوقوف على ديار الحبيبة الموحشة المهجورة ، وانما يطلب منهماان يعوجا الى ديارها ليسلما عليها ، وينقلا الى الحبيبة لوعة حبه وشوقه اليها ، وبذا يوظف جميل الافتتاحية الطللية لمعنى الغزل الذي يريده ، ويجعل الرفيقين وسيلة للتعبير عن حبه وشوقه وصدق عاطفته من خلال مبادلته الكلام معهما ومحاورتهما كقوله :

خليلي عوجا اليوم حتى تسلما
على عذبة الانياب طيبة النشر (٥٥٢)

وبدأ جميل احدى قصائده بتمني ايام وصال بثينة له والدعاء لديارها بالسقيا .

اعائدة يابثن ايامنا الاولى
بذي الظلم ام مالهن رجوع (٥٥٣)

(٥٥٢) نفسه ٩٠

(٥٥٣) ديوانه ص : ١٢٠

التحليل

الابيات ٧ ـ ١٩

يبدأ جميل بمخاطبة بثينة مباشرة مصورا مابنفسه من لوعة الوجد وثباته على حبه ، واخلاصه له ، مع معاناته من هجرها او قلة نوالها وبعدها ، فيعقد ميثاقا بالوفاء لها لان حبها قديم في نفسه متأصل متجذر ، وهو يصفها بالتمنع والاباء ، وخوف الوشاة لذلك يدعو عليهم ـ على الوشاة ـ بان يسقوا السم القاتل او ان يذلوا بالقيد او الحبس .

الابيات ١٩ ـ ٢٧

يصور الشاعر حبه واخلاصه لصاحبته ، وحرصه على سمعتها فهو حذر لايعرضها لسوء مقالة او كلام ، ولايثير اي شبهة حين يزور حيها ، لذلك تحسب النسوة انه جاء لزيارتهن ولكنه يقسم ان طرفه لايلتفت لحظة الى اي فتاة منهن .. وكيف يعلق بغيرها وقد علق حبها في قلبه منذ كان وليدا ..!

وهنا نلمح توظيف الشاعر للطبيعة ، وربطها مع مشاعره فالريح المريضة الهادئة تذكره بها فتشتد لوعته ، ويزيد شوقه فيتمنى ان تعود ايام الوصل واللقاء مع بثينة ، ويتمنى العيش ليلة واحدة في وادي القرى مربع اهله ، واهلها حيث يعيشان حياتيها الاعتيادية ، فيركب ناقة ضامرة معتادة على السفر تقود نوقا مثلها مهيأة للسفر والرحلات وهو تمنٍ ليس خاصا باسلوب جميل الغزلي ، وانما كثر وروده عند شعراء الغزل في الجاهلية ، والاسلام كما انه كثر وروده ايضا في شعر الحنين والغربة كما مر بنا في شعر مالك بن الريب .

٢٧ ـ ٢٩

يشير جميل الى موعد لقاء بينه وبين بثينة فتهيج عواطفه واصراره على حبها ، وانه لو كان هناك عقاب ، وحدّ يعاقب به من يحب حبيبا له فانه سيبقى ثابت الحب ، وفيا له حتى لو طبقت عليه الحدود الاسلامية ، واوقع عليه العقاب .

ويختم قصيدته بانه مع تمنعها ، وبخلها في الوصال يبقى متعلقا بذكراها وودها ..

قصيدة وتحليل

وقال عمر بن ابي ربيعة(☆) :

١ ـ أمن ال نعم انت غـــــــادٍ فمبكر
غـــداة غـــدٍ ام رائـــح فمهجر(٥٥٤)

٢ ـ لحـــاجـــة نفس لم تقـل في جـوابهـــا
فتبلـغ غـــدراً والمقـــالـــة تعـــذر(٥٥٥)

٣ ـ أهيم الى نعم فـــلا الشمـــل جـــامـــع
ولا الحبـــل مـــوصـــول ولاالقلب مُقصر(٥٥٦)

٤ ـ ولاقرب نعم ان دنت لـــك نـــافـــع
ولانـــــأيهـــــا يسلي ولاانت تصبرُ

٥ ـ وأخرى اتت مِن دون نعم ومثلهـــــا
نهى ذا النهى لـــو يرعـــوي او يفكرُ(٥٥٧)

٦ ـ اذا زرت نعما لم يـــزل ذو قرابـــة
لهـــا كلمـــا لاقيتهـــا يتنمر(٥٥٨)

٧ ـ عـــزيـــز عليـــه ان المّ ببيتهـــا
يسر لي الشحنـــــــاء والبغض يظهر

(☆) شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/ تحقق محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الاندلس ص ٩٢ فما بعدها

(٥٥٤) غاد : سائر في الغداة وهو اول النهار ، ومهجر من التهجير وهو السير وقت الهاجرة واشتداد الحر

(٥٥٥) لم تقل في جوابها : اي لم تصرح بحاجتك وكتمتها ، ولو انك صرحت بما دعاه للذهاب الى ديارها لاتت العذر لنفسك

(٥٥٦) اقصر القلب اي كف عن الهوى والصبابة

(٥٥٧) يرعوي : يكف

(٥٥٨) يتنمر : يعبس ويكلح وجهه تشبيها له بالنمر وشراسته

٨ ـ الكني اليهـــا بـــالسلام فـــانـــه
يشهر المـــــــامي بهـــــــا

٩ ـ بـآيـــة مـــاقـــالت غـــداة لقيتهـــا
بمـــدفـــع اكنـــــان أهـــذا المشهر(٥٦٠)

١٠ـ أهـــذا الـــذي اطريت نعتـــاً فلم اكن
وعيشـــــك أنســـــاه الى يـــوم أقبر

١١ـ فقـــالت نعم لاشـــك غير لـــونـــه
سرى الليـــل يحي نصـــــه والتهجر(٥٦١)

١٢ـ لئن كان ايـــاه لقـــد حـــال بعـــدنـــا
عن العهـــد والانســـان قـــد يتغير

١٣ـ رأت رجـلا امـــا اذا الشمس عـــارضت
فيضحى وامـــا بـــالعيش فيحفر(٥٦٢)

١٤ـ اخـــا سفر جـــواب ارض تقـــاذفت
بـــه فلـــوات فهـــو اشعث (غبر(٥٦٣)

١٥ـ قليـــل على ظهر المطيـــة ظلـــه
ســـوى مـــانفى عنـــه الرداء المحبر(٥٦٤)

١٦ـ واعجبهـــا من عيشهـــا ظـــل غرفـــة
وريـــان ملتف الحـــدائـــق اخضر

---

(٥٥٩) الكني اي كن رسولي اليها ، من الالوكة وهي الرسالة

(٥٦٠) بآية ماقالت : اي جعل بينه وبينها علامة لتبلغه وصول رسوله اليها والمشهر الذي شهر امره

(٥٦١) سرى الليل : السير ليلا . والنص : السير الشديد ، يريد ان لونه وحاله قد تغيرا بسبب اجهاده في السير ليلا ووقت الهاجرة نهارا

(٥٦٢) ويضحى اي يظهر للشمس ولايستتر منها

(٥٦٣) الفلوات جمع فلاة وهي الصحراء ، والاشعث الذي انتشر شعره او تفرق وانتشر ، واغبر : ظهر عليه الغبار ، يريد وصف حاله بانه لكثرة جوبه الصحارى قد صار شعره اشعث مغبرا

(٥٦٤) رداء المحبر الرداء المزين المحسن ، والحبرة نوع من اللباس المترف

١٧- و والٍ كفـــاهـــا كل شيء يهمهـــا

١٨- وليلـــــــة ذي دوران جشمني السرى فليست لشيء اخر الليـــــــل تسهر(٥٦٥)

١٩- فبت رقيبـــا للرفـــاق على شفـــا وقـــــد يجشم الهـــول المحب المغرر(٥٦٦)

٢٠- اليهم متى يستمكن النـــــــوم منهم احـــــاذر منهم من يطـــوف وانظر(٥٦٧)

٢١- وبـــاتت قلـوصي بـــالعراء ورحلهـــا ولي مجلس لـــولا اللبـــانـــة اوعر(٥٦٨)

٢٢- وبت انـــاجي النفس اين خبـــاؤهـــا لطـــارق ليـــل او لمن جـــاء معـــور(٥٦٩)

٢٣- فـــدل عليهـــا القلب ريـــا عرفتهـــا وكيف لمـــا آتي من الامر مصـــدر(٥٧٠)

لهـــا وهـــوى النفس الـــذي كاد يظهر(٥٧١)

---

(٥٦٥) والٍ رجل يتولى شؤنها ، ويقوم لها بما تحتاجه

(٥٦٦) دوران موضع ، جشمني كلفني ، يريد انه كلف نفسه عناء تجشم المخاطر في ليلة زيارته لحي دوران

بسبب حبه لنعم

(٥٦٧) شفا : قيل على طرف نهار ، وقيل وهو الاحسن على اشراف من الظلام بسبب مخاطرته في زيارتها ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : «وكنتم على شفا حفرة ...) ، وفي احدى نسخ الديوان على شقا اي في حالة شقاء وحزن خوفا من تعذر ملاقاتها

(٥٦٨) اللبانة الحاجة ، اوعر شاق شديد

(٥٦٩) القلوص : الناقة الشابة الفتية ، معور واضح مجيئه وقدومه

(٥٧٠) المناجاة محادثة النفس سرا

(٥٧١) الريا : الرائحة الطيبة

٢٤- فلمـــا فقـــدت الصـوت منهم واطفئت

٢٥- وغـــاب قمير كنت اهـوى غيـوبـــه مصـــابيـح شبت بـــالعشـــاء وانـوّر(٥٧٢)

٢٦- وخفض عني الصـوت اقبلت مشيـــة الـ وروح رعيـــــان ونـــــوم سمر(٥٧٣)

٢٧- فحييت اذ فـــاجـــأتهـــا فتـولهت حبـــاب وشخصي خشيـــة الحي ازور(٥٧٤)

٢٨- وقـــالت وعضت بـــالبنـــان فضحتني وكادت بخفـــوض التحيـــــة تجهر(٥٧٥)

٢٩- اريتـــك اذ هنـــا عليـــك الم تخف وانت امرؤ ميســـــــــور امرك اعسر

٣٠- فـواللـه مـــادري اتعجيـل حـاجـة - وقيت - وحـــولي من عـــبدوك حضر

٣١- فقلت لهـا بـل قـادني الشـوق والهـوى سرت بـك ام قـد نـام من كنت تحـذر

٣٢- فقـــالت وقـــد لانت وافرخ روعهـــا اليـــك ومـــانفس من النـــاس تشعر

٣٣- فـــانت ابـــا الخطـــاب غير مـــدافـع كـــلاك بحفـــظ ربـــك المتكبر(٥٧٦)

علي امير مـــــــامكثت مـــؤمر

---

(٥٧٢) انوّر : جمع نار ، يريد لما هجع قومها واطفئوا نيرانهم حاول ان يتقدم نحو خبائها

(٥٧٣) رعيان جمع راع ، وروحوا عادوا الى بيوتهم ، ونوم : نام ، والسمر القوم الذين يسمرون جمع سامر. وهم الذين يتحادثون ليلا للمسامرة

(٥٧٤) الخباب الغراب ، وازور : مائل منحرف

(٥٧٥) تولهت : اظهرت وهها اي حزنها وحيرتها لحبه

(٥٧٦) افرخ روعها : ذهب حزنها ، كلاك : حفظك

٣٤- فيـــالـــك من ليـل تقـاصر حـولـه ومـــاكان ليلي قبـــل ذلـــك يقصر

٣٥- ويـــالـــك من ملهى هنـــاك ومجلس لنـــا لم يكـــدره علينـــا مكـــدر

٣٦- يمـج ذكي المســـك منهـــ مقبـل نقي الثنـــايـــا ذو غروب مـــؤشر(٥٧٧)

٣٧- تراه اذا مـــاافتر عنـــه كأنـــه حصى برد او اقحـــوان منـــور(٥٧٨)

٣٨- وترنـــو بعينيهـــا اليّ كما رنـــا الى ظبيـــة وســـط الخميلـــة جـؤذر(٥٧٩)

٣٩- فلمـــا تقضى الليـــل الا اقلـــه وكادث تـــوالي نجمـــه تتغـــور(٥٨٠)

٤٠- اشـارت بـان الحي قـد حـان منهم هبـوب ولكن موعـد منـك عـزور(٥٨١)

٤١- فمـــا راعني الا منـــادٍ ترحلـــوا وقـــد لاح معروف من الصبـــح اشقر

٤٢- فلمـــا رأت من قـــد تنبـــه منهم وأيقـــاظهم قـــالت اثر كيف تـــامر

---

(٥٧٧) مقبل : اراد به الفم ، الثنايا جمع ثنية وهي احدى الاسنان الاربع التي في مقدم الفم . الغروب حدة الاسنان ورقتها

(٥٧٨) فتر : يريد اذا ضحكت وبدت اسنانها . البرد حب الغمام المتجمد الذي ينزل مع المطر . الاقحوان نبت ضعيف الريح ، ومنور اظهر نوره اي زهره

(٥٧٩) ترنو تنظر بطرف عينيها ، الخميلة الشجر الملتف الكثيف ، الجؤذر ولد البقرة الوحشية .

(٥٨٠) تتغور اي تغيب

(٥٨١) عزور على وزن جعفر مكان بعينه

٤٣- فقلت ابـــاديهم فـــامـــا افـــوتهم
وامـــا ينـــال السيف ثـــأراً فيثـــ (٥٨٢)

٤٤- فقـــالت : اتحقيقـــا لمـــا قـــال كاشـح
علينـــا ، وتصـــديقـــا لمـــا كان يـــؤثر (٥٨٣)

٤٥- فـــان كان مـــالابـــد منـــه فغيره
من الامر ادنى للخفـــــــــــاء واستر

٤٦- أقص على اختي بـــدء حـــديثنـــا
ومـــالي من ان تعلمـــا متـــأخر

٤٧- لعلها ان تطلبـــا لـــك مخرجـــا
وان ترحبـــا سربـــا بمـــا كنت احصر (٥٨٤)

٤٨- فقـــامت كئيبـــا ليس في وجههـــا دم
من الحـــزن تـــذري عبرة تتحـــدر

٤٩- فقـــامت اليهـــا حرتـــان عليها
كســـــاءان من خـــز دمقس واخضر

٥٠- فقـــالت لاختيهـــا اعينـــا على فتى
اتى زائرا ، والامر لـــلامر يقـــدر

٥١- فـــاقبلتـــا فـــارتـــاعتـــا ثم قـــالتـــا
اقلي عليـــك اللـــوم فـــالخطب ايسر

٥٢- فقـــالت لهـــا الصغرى ســـاعطيـــه مطرفي
ودرعي وهـــذا البرد ان كان يحـــذر (٥٨٥)

٥٣- يقـــــوم فيمشي بيننـــــا متنكرا
فـــلا سرنـــا يفشـــو ، ولاهـــو يظهر

---

(٥٨٢) اياديهم اي ابدو لهم واظهر

(٥٨٣) الكاشح الذي يضمر العداوة ، يؤثر يتناقل يريد مايتناقله الوشاة

(٥٨٤) السرب النفس

(٥٨٥) المطرف رداء من خز مربع ذو اعلام ، الدرع القميص ، والبرد يلبس فوق الملابس

٥٤- افكان مجني دون مـــــــاكنت اتقي
ثـــلاث شخـــوص كاعبـــان ومعصر(٥٨٦)

٥٥- فلمـــا اجـــزنـــا ســـاحـــة الحيّ قلن لي
امـــا تتقي الاعـــداء والليـــل مقمر(٥٨٧)

٥٦- وقلن اهـــذا دأبـــك الـــدهر ســـادرا
امـــا تستحي او ترعـــوي أو تفكر(٥٨٨)

٥٧- اذا جئت فـامنـح طرف عينيـك غيرنـا
لكي يحسبـــوا ان الهـــوى حيث تنظر

٥٨- فـآخر عهـــدي لي بهـــا حيث اعرضت
ولاح لهـــــا خـــــد نقي ومحجر

٥٩- ســوى انني قـــد قلت يـــانعم قـولـــة
لهـــا والعتـــاق الارحبيـــات تـــزجر(٥٨٩)

٦٠- هنيئـــا لاهـــل العـــامريـــة نشرهـــا
اللـــذيـــذ وريـــاهـــا الـــذي اتـــذكر(٥٩٠)

٦١- وقمت الى عنس تخـــــون نيهـــــا
سرى الليـــــل حتى لحمهـــــا متحسر(٥٩١)

٦٢- وحبسي على الحـــاجـــات حتى كأنهـــا
بقيـــــة لـــوح او شجـــار مـــؤثّر

٦٣- ومـــاء بمـــومـــاة قليـــل انيســـه
بســـابس لم يحـــدث بـــه الصيف محضر

---

(٥٨٦) كاعبان ومعصر يريد بهن ثلاث فتيات صحبنه في هربه

(٥٨٧) اجزنا قطعنا

(٥٨٨) سادرا غير مهتم بما تصنع ، ترعوي تكف عما غلب عليك ، دأبك عادتك

(٥٨٩) العتاق جمع عتيق واراد بها الخيل الاصيلة ، الارحبيات جمع ارحبي وهو المنسوب الى قبيلة ارحب

(٥٩٠) تزجر الريح الطيبة ومثلها الريا

(٥٩١) عنس الناقة ، تخون نيها اي تنقص شحمها لطول سيرها

التحليل :

اذا كان شعر جميل بن معمر صورة لشعر الغزل العذري عامة وغزل البادية خاصة فان شعر عمر بن ابي ربيعة يمثل غزل الحضر بل هو زعيم الغزليين من اهل الحضر كما وصفه د . طه حسين .

واذا كنا نجد في شعر جميل بثينة صدق العاطفة في وصف عاطفة الحب ولواعج الهوى وحرقة الفراق فاننا نجد في شعر عمر بن ابي ربيعة صورا متنوعة لحال عمر ، الذي يمثل الشباب الملكي المترف الرقيق - وصورة المرأة العربية المنعمة ذات العقل والدل والجمال .. وصورة المجتمع بعلاقاته المختلفة ونشاطاته المنوعة ، من رحلات ، وحج ، ومجالس سمر ، الى وصف تحركات النساء ولباسهن وتصرفاتهن فالمؤرخ العربي (الذي يريد ان يدرس حياة المرأة العربية المترفة في هذا القرن الاول يجب ان يلتمس الادب والتاريخ بمثل مايظفر به في هذا الشعر ، فيه ترى المرأة العربية المترفة واضحة جلية الصورة تنفق حياتها في هذه الدعة والنعمة اللتين على عفتها وطهارتها لاتخلوان من لهو ودعابة ، ولامن عبث وفكاهة والمؤرخ الذي يريد ان يدرس الصلة بين الرجال والنساء في هذا العصر يجب ان يلتمس ذلك عند عمر بن ابي ربيعة(٥٩٢) ولكن طه حسين وكثيراً من الباحثين وصفوا غزل عمر بالغزل الاباحي ،ناظرين اليه من منظار واحد هو كثرة الفتيات اللائي تغزل بهن ، متناسين ماتركه هذا الغزل من اعجاب في نفوس معاصريه من شعراء الغزل او الشعراء ان لم نقل الادباء عامة .

فجميل بثينة نفسه يقر لعمر بالفضل في الغزل بعد ان سمع له قصيدة ، ويسمعه مثلها فيقول له معترفا برقة غزله (هيهات يابا الخطاب لاقول مثل هذا سجيس الليالي . والله ماخاطب النساء مثلك احد .

وكلمة الفرزدق في شعر عمر مشهورة اذ ذكر انه حين سمع البيت :

وقمن وقد افهمن ذا اللب انما

اتين الذي ياتين من ذاك من اجلي

صاح وقال : هذا الذي ارادته فاخطأته الشعراء ، وبكت على الديار .

---

(٥٩٢) رأي طه حسين في حديث الاربعاء .

اما اعجاب القريشيين به فكثير في حياته وبعده يكفي أن تتذكر راوي اشعاره وصديقه ابن ابي عتيق الذي ذكرت له آراء كثيرة في غزل عمر وأبياته . واما الزبير بن بكار فأنه قال : ادركت مشيخة من قريش لا يزنون بعمر ابن ابي ربيعة شاعرا من اهل دهره في النسيب ، ويستحسون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه ، والتحلي بمودته» واما مصعب بن الزبير فانه ذكر كلمة طويلة في تعليل اعجابه بشعر عمر وكونه قد فاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الاسر ...

كل هذه الاقوال تدلنا على ان القدماء لم ينظروا الى شعر عمر ابن ابي ربيعة على انه شعر مجون او فسق ، او انه شعر اباحي كما وصفه المحدثون ، انما وصفوه بالرقة وسلاسة التعبير من آراء اخرى في نقد اشعاره او اخباره .

واشهر ما ذكر لعمر وقصيدته هذه هو مع ابن عباس - حبر الامة - وصاحب جهود كبيرة في التفسير (٥٩٣) اذ ذكر انه كان يوما في المسجد الحرام فقدم عليه نافع بن الازرق زعيم الازارقة - وهم فرقة من الخوارج نسبوا اليه - ليسأله عن مسائل في القرآن الكريم فاقبل عليه عمر بن ابي ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين حتى دخل وجلس ، فاقبل عليه ابن عباس فقال انشدنا . فانشده ... (القصيدة الرائية) فاقبل عليه نافع بن الازرق فقال له : والله يا ابن عباس اذا نضرب اليك اكباد الابل من اقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتشاقل عنا ، ويأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك :

رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت

فيحزى واما بالعشي فينحسر

فقال ليس هكذا، قال : فكيف ، قال قال :

رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت

فيضحى واما بالعشي فيخسر

---

(٥٩٣) له تفسيره طبع باسم «تنوير المقباس من تفسير ابن عباس للفيروز ابادي .

فقال : ماراك الا كنت حفظت البيت ، قال : فاني اشاء ، فانشده[٥٩٤] . وموقف ابن عباس هذا ينقل لنا صورة للمجتمع المكي الذي لم ينظر الى شعر عمر نظرة تخوف او استهجان ، ولاعدوه اباحيا مع اختلافهم في مدى قبوله او نقده واظهار بعض هفواته في الوصف والنسيب .

اما المحدثون فقد تناولوا هذه القصيدة ضمن ماتناولوه من دراسات تخص شعر الغزل ، وعدوها من قصص عمر الماجنة .

وقد درست د . بشرى الخطيب قصص عمر تحت مبحث قصص الحب الماجن[٥٩٥]

---

(٥٩٤) **الديوان (مقدمته) ص ١٦ .**

(٥٩٥) القصة والحكاية في الشعر العربي في صدر الاسلام والعصر الاموي/ د . بشرى الخطيب والظر حديث الاربعاء ٢٩٣/١ ، **تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام شكري فيصل ٢٨٠ ، حب ابن ابي ربيعة/ جبريل جبور .**

تحليل القصيدة

وسنحاول من خلال شرح الابيات وتحليلها متابعة غزل عمر في هذه القصيدة وغيرها، مما يقدم صورة واضحة لهذا الضرب من الغزل الذي كان شائعا في العصر الاموي.

الابيات ١-٧

أفتتح عمر قصيدته بالاستفهام معتمدا الهمزة وام ليبدأ حديثه عن امرأة اسمها نعم كانت هدفه في هذه المغامرة التي يقص لنا حديثها ، فيصور لنا حبه لها وهيامه بها ، وصعوبة الوصول اليها ليقدم لنا تمهيدا يحيط جو مغامرته بالمخاوف والمخاطر ، ففتاته مترفة منعمة واهلها او ولي امرها يحمل له البغضاء والكراهية ولايطيق رؤيته في منازلهم ، ومع ذلك يحاول عمر القيام بزيارتها ليلا ليضمن تخفيه عن عيونهم ومراقبتهم له .

٨-٢٥

هنا يصف عمر اول خطوة لقصته الشعرية هذه بعد ان مهد لنا وصف جو المغامرة ، فقد وقف مراقبا لديارها بعد طول رحلة ، وسفر مضن ينتظر هجوع اهلها ، محاولا تبين خبائها من بين اخبية قومها ، وفجأة يتعرف عليه ، لامن خلال علاقة معينة وانما يدله عليها حبه واشواقه نحوها ، ورائحتها الطيبة التي يعرفها !!

٢٦-٣٩

هنا تهدأ الاصوات وتخفت الحركات ، وتطفيء المصابيح ، ويهجع الرعيان وينام الساهرون فيزحف عمر منسابا زاحفا كالحية ، ويفاجيء نعما بالتحية فتظهر ولهها ، وتعض بنانها من هول المفاجأة وخشية الفضيحة ، وتسأله عما دفعه الى هذه المخاطرة ، فيجيبها بان هواها واشواقه اليها هما دفعاه نحوها ، وانه لم يشعر بقدومه احد فتطمئن نفسها ، ويفرخ روعها فتدعو له الله ان يحفظه ، وتصرح له بحبها ، وانه امير قلبها ... ويطول حديثه معها فيقصر ليله لانه مع حبيبته التي يعود في هذه الابيات الى وصف جمالها ، جمال فمها وعينيها .

٤٠ـ٤٩

في هذه الابيات يبدأ مشهد اخر من مشاهد القصيدة والمغامرة فخيوط الفجر تبدأ بالظهور ، وتسمع في الحي اصوات وحركات فتفزع صاحبته ، وتسأله خائفة عما سيفعل ، وهنا لابد ان يظهر عمر نفسه بمظهر البطل الذي لايهاب الموت فيشير عليها بان يبرز ويظهر امام اهلها فاما ان يستطيع النجاة منهم ، او ان يثأروا منه ، ولكن نعما المحبة تخشى على نفسها الفضيحة ، وتخاف عليه من قومها فتختار له طريقا اخر للنجاة مستعينة بمشورة اختين لها .

٥٠ـ٥٤

ينقل عمر في هذه الابيات صورة نعم وقد اخذها الخوف عليه وتحرر دمعها فتخبر اختين او صديقتين لها فترتاع الاختان اول وهلة ثم تستعدان جأشها ويطمئنان صاحبتهما بان يقترحا اخراج عمر من الحي متنكرا بزي احداهن .

٥٤ـ٦٢

يخرج عمر متخفيا برداء احدى الفتاتين ، وعلى عكس ماهو معروف من حراسة النساء بالرجال يخرج عمر متقيا الشر والاذى بحماية ثلاث فتيات !! فيجتاز الحي بسلام . وهنا يبدأ المشهد الاخير ، الفتاتان وقد امنا هرب عمر يعودان الى لومه وتأنيبه والفتاة هي الاخرى تحذر عمر من زيارته المقبلة ، وتنصحه بالا يتظاهر في زيارته بالمودة ، وان يمنح طرفه لغيرها لئلا يثير شكوك قومها ...

٦٢ـ الى اخر الابيات

يصف عمر انتهاء الزيارة والمغامرة ، وعودته الى رحلته الشاقة فيصف ناقته ، وسيرها الجاد في الصحراء الخالية الموحشة .

ومن خلال عرض الابيات يظهر لنا اسلوب عمر القصصي في غزله فقصيدته هذه حقا تشكل حكاية متسلسلة الاحداث (صنع عمر عقدة القصة ومأزقها الحرج ، ثم وضع حلها على يد تلك المرأة واختيها)(٥٩٦)

(٥٩٦) القصة والحكاية ٢٣١ .

ونستطيع في الوقت نفسه ان نتبين اسلوب عمر ولغته الشعرية من خلال العودة مرة اخرى الى قراءة القصيدة ... فتكاد تخلو مما وصف به شعر عمر بالمجون سوى بيت واحد ذكر محقق الديوان الديوان انه ساقط من اصل روّاية اخرى او نسخة اخرى للديوان (٥٩٧) ما وصفه لطيب رياها وجمال فمها وثناياها فهو موجود في اشعار العذريين ايضا ، ولانعدمه في وصف جميل لصاحبته بثينة .

وقد ذكر ان (هذه القصيدة ومثيلاتها من شعر عمر مغامرات متعة حسية فقط تفتقد العواطف الجياشة الصادقة ، والاشواق الساذجة المخلصة التي كنا نحسها في قصائد شعر البادية العذري ونتجاوب معها) (٥٩٨) . الا ان قراءة الابيات الاولى تطلعنا على عاطفة جميلة لابد ان تتجاوب معها ، وتهتز لها ، وقد اعتمد الشاعر فيها اسلوب الاستفهام والخطاب والحوار معتمدا على تكرار اسم صاحبته ليؤكد حبه لها وفي البيتين الرابع والخامس لجأ عمر الى تكرار النفي خمس مرات

ولاالحبل موصول ولا القلب مقصر
اهيم الى نعم فلا الشمل جامع
ولاقرب نعم ان دنت لك نافع
ولا نأيها يسلي ولا انت تقصر

وقد منح هذا التكرار لغته الشعرية جمالا بدا في تنغيم داخلي للابيات يرسخ من خلاله وقع الحب في نفسه وتمكنه من قلبه .

كما وجدناه في البيت ٢٤ ، مبدعا في وصف قدرته على التعرف على بيت نعم من خلال هدي اشواقه اليها ، او من تنسم رياها العطرة .

---

(٥٩٧) هو البيت الذي يلي البيت (٣٤)

(٥٩٨) القصة والحكاية ٣٤١

وهناك مواطن عديدة نجح عمر في ابراز عاطفة المودة والحب ، لامن خلال تصوير لواعجه هو وحده وانما من خلال نجاحه في تصوير حُب صاحبته له ، ويكفيه هذا نجاحا لنفي خلو اشعاره من العاطفة الصادقة .. نجد هذا من خلال اعتماد الشاعر عمر على الحوار والحديث المتبادل بينه وبين صاحبته ، او بينها وبين صاحباتها (الابيات ٣٢،٣٣،٣٤،٤٤،٤٥،٤٦،٥١،٥٢ ...)

اما وصف عمر لرحلته في سبيل من احب فقد بدا باهتما ازاء وصفه لمشاعر الفتاة المتغزل بها ، او وصف ترفها ، وحسن عيشها ، ولعل سبب ذلك عائد الى طبيعة حياته نفسها ، اذ لم يكن عمر جوّاب صحارى ، ولاقاطع فلوات ... الا مايوصله الى غاياته في رحلاته القصار المنعمة .

واخيرا نقول ان هذه القصيدة تمثل فن عمر بن ابي ربيعة وشعره ، ولغته فنجد فيها سهولة التعبير وجماله ، وعفوية الوصف ورقته معتمدا الخيال الجميل ، والقصة المتلاحمة المشاهد ، والعاطفة المنسابة الهادئة رغبته في لقاء الحبيبة ، وتصريحه بحب صاحبته له واعترافها على لسانه - يصاف الى هذا كله سلامة لغته وفصاحتها حتى عدّه الاصمعي حجة يحتج بشعره حين سئل عنه في كتابه فحوله الشعراء .

محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

اغراض شعرية قديمة ومتطورة (الحكمة)

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

٥ ـ الحكمة :

الحكمة من المعاني الشعرية التي كانت معروفة في شعر ماقبل الاسلام ، فقد كان الشاعر الجاهلي يتأمل حياته وواقعه ويتفحصّ حال قبيلته ووضع الانسان فيها ويتأرجح رأيه ونظرته الى الحياة فهناك من رآها فانية ، وتأمل الحروب فيها فزادت نفسه رغبة في الحياة وتحدي ظروف الموت القاهرة فلجأ الى الخمرة والقيان مفلسفا هذا بنظرته الى الحياة التي لادوام فيها ولاخلود لانسان سعدت حياته فيها او شقيت وهكذا وجدنا طرفة بن العبد(٥٩٩) ينقل لنا في اشعاره مسوغاته التيُ يتمنع بها نفسه في سبب انغماره باللذات بينما وجدنا شاعرا اخر كزهير بن ابي سلمى ينظر الى الامور نظرة اخرى فالمنايا تخبط خبط عشواء لايفلت منها احد ، والحروب تفني وتبيد ، والمستقبل المجهول مصير كل انسان توافيه منيته اخر المطاف فما عليه الا ان يعمل مايخلد ذكره بين الناس . تجد كل هذه الافكار والنظرات في معلقته التي امتدح بها هرما بن سنان ولم تعد فيها نظرته الى الحياة نابعة من حكمته وتجاربه فحسب بل نجح في ابرازها لتكون حكمة الامة نتيجة التجارب الطويلة التي تشهدها كل يوم . اما الموت فقد حير البشرية امره فنرى الشاعر قبل الاسلام يعزى نفسه بتأملات طويلة في عالم الاحياء فيطوف في عوالم الحيوان الذي يعرفه في بيئته حمار الوحش والظباء والكلاب ويتأمل حياتها المنعزلة البعيدة عن الناس وكيف يفاجؤها الصياد فيشتت شملها وجمعها(٦٠٠) كما حاول بعضهم اللجوء الى التعاويذ والتمائم كل ذلك يصور حيرة الانسان في ذلك العصر ازاء ظاهرة الموت الابدية فيقف متأملاً ومفسرا وفق نظرته الخاصة الى الامور ولم تكن الحكمة غرضا قائما بذاته في الشعر العربي وانما ترد في ثنايا الاغراض الشعرية المعروفة قبل الاسلام وعبر المعاني الشعرية المختلفة التي يعبر عنها الشاعر مدحا او غزلا فخرا او هجاء ، وماذلك الا لكونها ممثلة لخلاصة تجارب الشاعر او نظرته الى الحياة ازاء اي امر من امورها وازاء اي موقف من مواقفها . من هنا تداخلت الحكمة ضمن الاغراض الشعرية الاخرى وقد وجدنا من المؤلفين القدماء من جعلها ضمن باب من ابواب الشعر كما وجدنا من جعلها مفردة بكونها معنى او غرضا قائما بذاته فابو تمام جعل الحكمة ضمن

---

(٥٩٩) انظر معلقته في شرح القصائد لابن الانباري ١٩٨ فما بعدها .

(٦٠٠) نفسه ص ٢٣٧ .

باب الادب فنجد معاني الحكمة متفرقة في اشعار الشعراء في هذا الباب (٦٠١) بينما عد عبد الكريم النهشلي شيخ ابن رشيق عد الحكمة من اصناف الشعر حين قال : (اصناف الشعر اربعة المديح والهجاء والحكمة واللهو .. ويكون من الحكمة الامثال والتزهيد والمواعظ) (٦٠٢).

وبغض النظر عن المؤشرات العامة التي قيلت بشأن وجود الحكمة في عصر ماقبل الاسلام تبقى الحكمة وثيقة الصلة بالحياة الانسانية عامة والعربية خاصة فنظرة العربي الى الامور لابد ان تحكمها تجاربه وافكاره وبيئته وماينتج عن هذه النظرة من تأملات وافكار يسميان حكمة . فليس غريبا بعد هذا ان نقول باستمرار معاني الحكمة في العصر الاسلامي خاصة اذا ماتذكرنا مااثاره الاسلام من دعوة الى التفكير والتأمل في كثرة التساؤلات التي اثارتها الايات الكريمة في نفس العربي المسلم عن اسرار خلق الله وعن حكمته في خلق السموات والارض يضاف الى هذا دعوة الانسان الى اخذ العبرة والموعظة من تجارب الاخرين في ايات كثيرة تحدثت عن الاقوام والامم البائدة وماارسل اليها من رسالات سماوية .

لقد صارت الحكمة في عصر صدر الاسلام ضالة المؤمن حيث ماوجدها فهو احق بها (٦٠٣) وماذلك الا لكون الحكمة نظرة صادقة الى الحياة مستمدة من التجربة الانسانية فمادامت الحكمة موافقة للحق فهي ضالة المؤمن حيثما وجدها . وبذا يدرج الحديث الشريف «ان من الشعر لحكمة» (٦٠٤) ضمن الحديث عن الحكمة في هذا العصر .

لقد ذهب بعض الباحثين الى القول بقلة شعر الحكمة في عصر صدر الاسلام وان اغلبه مما صدر عن شعراء مخضرمين وان الحكمة في شعر حسان قليلة قلتها في شعر اهل عصره لان حسانا في الجاهلية قد اتسع وقته لارسال النصائح والحكمة والنظرات التأملية والكلام في اخلاق الناس (٦٠٥).

---

(٦٠١) حماسة ابي تمام ٤/٢ ، ١١/٨ ومواضع متفرقة

(٦٠٢) العمدة ١٢١/١ .

(٦٠٣) سنن ابن ماجة ٣٩٥/٢ وانظر المعجم المفهرس لالفاظ الحديث ٤٩١/١ .

(٦٠٤) الحكمة في الشعر الاموي/ رسالة ماجستير ص٢٢ محمد حسين ابراهيم جامعة بغداد - كلية الآداب .

(٦٠٥) حسان بن ثابت محمد طاهر درويش ٣٢٩ .

وذكر اخرون أن سبب قلة شعر الحكمة في عصر صدر الاسلام هو القرآن الكريم الذي شغلت حكمته الشعراء وغير الشعراء لان القيم الروحية والخلقية اغنت الشعراء من ان يقدموا حكمهم في اشعارهم كما انهم راحوا يتأملون اياته فشغل فكرهم وجعل تأملهم في الكون والحياة والانسان تأملا موجها يسعى الى غاية معلومة وهدف سام [٦٠٦] ونرى ان هذين التعليلين غير كافيين لان الواقع الانساني والشعري يرفضان فكرة نضوب الحكمة في شعر صدر الاسلام لان طبيعة الاحداث الحاسمة التي مر بها العربي تفرض عليه ان يقف متأملا مستخلصا افكاره ونظراته للحياة مما يشهده في مجتمعه وبيئته الجديدة ، واذا كان للقرآن اثر في معاني الحكمة فهو اثر كبير لا في صرف الشعراء عنها وانما في توجيهها وجهة موافقة لما وجهت اليه افكار الناس وسلوكهم في الحياة فقد جاء الدين الاسلامي بفكر وجه حياة العربي واخذ به نحو العمل الجدي النافع لمجتمعه فلم تعد الحياة غير مجدية (ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك) [٦٠٧] كما انها ليست خالدة ولامخلدة لاحد وانما لكل اجل كتاب ، وسنة الله في خلقه تتجلى في قدرته على الخلق والممات والبعث والنشور ، والحياة الدنيا ليست فانية فناء مطلقا فلاداعي لليأس والضياع وانما هناك الاخرة بما تحمله من معاني الخلود والبقاء للخير حيث الخلود في الجنة ، والعذاب الشديد لكل من ينحرف عن جادة الخير والصواب في نار جهنم ..

وهكذا اتجهت افكار الشعراء لتصور مااستمدوه من حكمة من القرآن الكريم وتفاوت ذكرها بتفاوت قدرة الشاعر على فهم نظرة الاسلام الى الحياة فهذا حسان بن ثابت يستمد معناه في بعض شعره من الاية الكريمة (هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) [٦٠٨] فيقول ذاكرا هجرة الرسول (ﷺ) :

وهل يستوي ضلال قوم تسفهوا
عمى وهداة يهتدون بمهتد
لقد نزلت منه على اهل يثرب
ركاب هدى حلت عليهم باسعد

---

(٦٠٦) الحكمة في الشعر الاموي ٢٤ .

(٦٠٧) سورة آل عمران ١٩١/٣ .

(٦٠٨) سورة الزمر ٩/٣٩ .

نبي يرى مـــالايرى النـــاس حـولـــة

ويتلـو كتـاب اللـــه في كل مسجـــد[٦٠٩]

وعمر الانسان محدود ، واجله مقدر لذلك يرثي حسان بن ثابت الرسول (ﷺ) عليه وسلم مؤكدا الفكرة نفسها :

فلم يترك اللـــــه منـــــا بعـــــده ذكرا

ولم يعش بعـــــــــــــــده انثى ولاذكرا

ذلت رقـــــاب بني النجـــــار كلهم

وكان امرا من امر اللـــه قـــد قـــدرا[٦١٠]

وقد اكد الشعراء هذه الفكرة واكثروا من ذكرها في مراثيهم في عصر صدر الاسلام والعصر الاموي فلاداعي لتكرارها هنا انما نكتفي بالقول بان الاسلام زاد من ذكر الحكمة في ضرب المثل[٦١١] في اشعار الشعراء لكثرة ماورد منها في القرآن الكريم وللحصافة التي صار عليها العقل العربي في نظرته الى الحياة الدنيا والى تصاريف امورها كل هذا اجرى الحكمة على لسان الشاعر واحضر امامه صورة الامثال والعبر[٦١٢] وقد وجدنا بعض الشعراء يوقفون قصائد في اشعارهم على التأمل متمثلين بعض معاني القرآن الكريم ، ونضرب لهؤلاء مثلا النابغة الجعدي في قصيدته التي بدأها بقوله :

الحمـــد للـــــه لاشريـــــك لـــــه

من لم يقلهـــــا فنفســـــه ظلمـــــا

---

(٦٠٩) ديوان حسان بن ثابت ٥٢/ (طبعة صادر) .

(٦١٠) نفسه ٩٣ .

(٦١١) انظر الحكمة في شعر حسان بن ثابت في الصفحات ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ وغيرها .

(٦١٢) الادب العربي : محمود مصطفى ٩٨ .

ويستمر في هذه القصيدة مثنيا على الله تعالى مستمدا من كتابه الكريم معانيه وافكاره متأملا قدرته ، وتدبيره في خلقه ويتطرق بعد هذا الى سوق الحكمة والموعظة فيذكر الناس بحال الامم البائدة التي ذكرها الله في القرآن الكريم او الذين عرف الناس سلطانهم وجبروتهم ثم اذلهم الموت والفناء :

يـــاايهـــا النـــاس هـــل ترون الى
فـــارس بـــادت وخـــدهـــا رغمـــا
امســـوا عبيـــدا يرعـــون شـــاءكم
كأنـــمـــا كان ملكهم حلمـــا
او سبـــأ الحـــاضرين مـــأرب اذ
يبنـــون من دون سيلـــه العرمـــا
نـــزقـــوا في البـــلاد واغترفـــوا الـ
ـهـون وذاقـوا البـأسـاء والعـدمـا[٦١٣]

اما ابو الاسود الدؤلي فهو من الشعراء الذين عاشوا في صدر الاسلام وزمنا من العصر الاموي (توفي سنة ٦٩ هـ) عرف بكونه غزير الحكمة وافرها لكثرة تجاربه وتقيده باحكام دينه في سلوكه ولاشتغاله بالعلم والفقه[٦١٤] . وقد عزا د . فتحي الدجني كثرة الحكمة في شعره الى روحانية الاسلام التي تعمقت في نفسه فضلا عن ملازمته للامام علي والى كونه قاضيا احس بمشاكل الناس عن قرب بسبب اختلاطه بهم[٦١٥].

---

(٦١٣) شعر النابغة الجعدي ١٠٢ وانظر تحليل الابيات واعادة معانيها الى آيات من الذكر الحكيم في العصر الاسلامي / ضيف ١٠٣

(٦١٤) شعر الحكمة في العصر الاموي ٤٦ .

(٦١٥) نفسه .

اما في العصر الاموي فأننا نجد شعراء اكثروا من ذكر الحكمة والامثال في اشعارهم . ولعل لاتساع الحياة العربية وكثرة الاحداث الجسيمة فيها اثرا كبيرا في تطور المعاني الشعرية والاكثار من الحكمة فيها فهناك شعراء استمدوا حكمهم وامثالهم من القرآن الكريم وقصصه بصورة خاصة كقول هدبة بن الخشرم :

فـــانـــا قـــد حللنـــا دار بلـــوى
فتحطمنـــــا المنـــــايـــــا او تصيب

فـــان يـــك صـــدر هـــذا اليـــوم ولى
فـــــان غـــــدا لنـــــاظره قريب

عسى الكرب الـــــذي امسيت فيـــــه
يكـــــــــون وراءه فرج قريب (٦١٦) .

واذا تتبعنا الحكمة في العصر الاموي وجدناها حقا مثبوتة في اغراض الشعر محكمة لكثير من المعاني فتراها في اشعار الرثاء والمديح والاخوانيات كما تراها في الشعر السياسي والحماسي فغزارتها اذن جزء من غزارة معاني هذه الاغراض الشعرية وتطورها ومن ثم تابع لتطورها لكونها مفلسفة لنظر الشاعر في كل معنى يريد ايراده واقناع الاخرين به او التأثير فيه ، ولاعجب ان وجدناها ايضا في شعر شعراء النقائض من خلال محاولة الشاعر اقناع السامع بصدق مايقول في فخره بنفسه وقومه وهجاء الاخرين ، وسنختار لشعر الحكمة شاعرا من الشعراء الاسلاميين الذين وردت الحكمة في شعره مستجدة من الحياة العربية والمثل العليا والمبادئ الاسلامية ، وفرقه عن غيره يتجلى بطول قصيدته التي افرغها افراغا في موضوع صلة الرحم ومايمكن ان يستمد منه من حكمة .

(٦١٦) ديوانه ٥٤ .

محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

قصيدة معن بن اوس المزني وتحليلها

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

قصيدة وتحليل

قال معن بن اوس المزني[٦١٧] من قصيدة له :

١ - وذي رحم قلمت اظفار ضغنه
بحلمي عنه وهو ليس له حلم[٦١٨]

٢ - يحاول رغمي لايحاول غيره
وكالموت عندي ان يعربه الرغم

٣ - فان اعف عنه اغض عينا على قذى
وليس له بالصفح عن ذنبه علم[٦١٩]

٤ - وان انتصر منه اكن مثل رائش
سهام عدو يستهاض بها العظم[٦٢٠]

٥ - وبادرت منه النأي والمرء قادر
على سهمه مادام في كفه السهم

٦ - صبرت على ماكان بيني وبينه
ومايستوي حرب الاقارب والسلم

٧ - ويشتم عرضي في المغيّب جاهدا
وليس له عندي هوان ولاشتم

٨ - اذا سمته وصل القرابة سامني
قطيعتها تلك السفاهة والاثم

---

(٦١٧) معن بن اوس المزني شاعر اسلامي حقق ديوانه د . نوري حمودي القيسي ، و د . حاتم الضامن . والقصيدة في ديوانه ص٤٠ فما بعدها .

(٦١٨) قلمت اظفار ضغنه : حلمت عنه واطفأت شره ، والضغن العداوة رغمي اذ لالي ، يعربه : يصيبه .

(٦١٩) اغض : اغمض ، يقول ان حلمت عنه احتملت شرا وهذا ليس من خلقي .

(٦٢٠) رائش : اي رائش للسهم ، يقول اذا غضبت على ابن عمي اكون كن راش سهما وقدمه لعدوه فاصابه به . فالغضب على ابن عمه يصيبه اذاه .

٩ - وان ادعـــه للنصف يـــاب ويعصني

١٠- فلـــولا اتقـــاء اللـــه والرحم التي ويـــدعـــو لحكم جـــائر عصره الحكم[٦٢١]

١١- اذا لعـــلاه بـــارقي وخطمتـــه رعـــايتهـــا حـــق وتعطيلهـــا ظلم[٦٢٢]

١٢- ويسعى اذا ابني ليهـــدم صـــالحي بـــوسم شنـــار لايشـــاكلـــه وسم[٦٢٣]

١٣- يـــود لـــو اني معـــدم ذو خصـــاصـــة وليس الـــذي يبني كمن شـــأنـــه الهـــدم

١٤- ويعتـــد غنما في الحـــوادث نكبتي واكره جهـــدي ان يخـــالطـــه عـــدم[٦٢٤]

١٥- والحم منـــه كل ابلـــخ طـــامـــح ومـــاان لـــه فيهـــا سنـــاء ولاغنم[٦٢٥]

١٦- ويشركـــه في مـــالـــه بعـــد وده الـــد شـــديـــد الشغب عـــاينـــه الغشم[٦٢٦]

على الـــوجـــد والاعـــدام قسم هـــو القسم[٦٢٧]

---

(٦٢١) النصف الانصاف ، يقول اذا دعوته الى الانصاف ابى وعصاني .

(٦٢٢) هنا تأثر بالقران الكريم ودعوته الى صلة الرحم وعدها واجبا على المسلم .

(٦٢٣) البارق : السيف الذي يبرق ، حطمته تركت عليه اثرا ، والوسم : الاثر ، الشنار العيب .

(٦٢٤) العدم الفقر ، والخصاصة الحاجة .

(٦٢٥) السناء : المجد .

(٦٢٦) الحم : اكف ، الابلخ المتعظم ، الطامح : الرافع رأسه نخوة . الالد : الشديد الخصومة ، الشغب الشر ، الغشم الظلم .

(٦٢٧) القسم النصيب ، الوجد : كثرة المال .

١٧- لكف مفيـــد يكسب الحمـــد والنـــدى

ويعلم ان البخـــل يعقبـــه النـــدم (٦٢٨)

١٨- فمـــا زلت في لـيني لـــه وتعطفي

عليـــه كما تحنـــو على الـــولـــد الام

١٩- وخفضي لـــه مني الجنـــاح تـــألفـــا

لتـــدنيـــه مني القرابـــة والرّحم

٢٠- وقـــولي اذا اخشىٰ عليـــه مصيبـــة

الا اسلم فـــذاك الخـــال والعقـــد والعم (٦٢٩)

٢١- وصبري على اشيـــاء منـــه تريبني

وكظمي على غيظي وقـــد ينفـــع الكظم

٢٢- لاستـــل منـــه الضغن حتى استللتـــه

وقـــد كان ذا حقـــد يضيـــق بـــه الجرم (٦٣٠)

---

(٦٢٨) المفيد : الذي يعطي الفوائد يعني نفسه ، يعقبه ياتي بعده ، يقول ان الذم هو عاقبة البخيل كما ان الحمد جزاء الكريم .

(٦٢٩) العقد : العهد .

(٦٣٠) الجرم : الخلق ، او الجسم اي كان ذا حقد شديد يضيف الجسم عنه .

معن بن اوس والدعوة الى صلة القربى

معن بن اوس المزني شاعر اسلامي ، اورد في شعره الكثير من النظرات المتأملة الدائرة في اطار الحكمة ، فمن بين نعي للفرقة والشقاق الى دعوة لنبذ الخلاف والاحتكام الى العقل ، وفي شعره دعوة الى انصاف البنات لان فيهن الصالحات كما نجد الرجال الصالحين في المجتمع ، وفي شعره دعوة الى الحلم والصبر بدلا من السيف والقتال . وتكاد الحكمة ان تكون ظاهرة بارزة في اشعار معن ، وهي صورة توحي بادراكه الحياة ، ومعرفته باحوالها وخبرته بتجاربها (ان وجود العقل في ايراد الحكمة ، واعتماده في اعطاء الصورة ، والرجوع اليه في تاكيد مايذهب اليه ، واستخدامه اداة من ادوات التعقل وهو يعطي الاحكام يكشف عن جانب فكري واضح من اعمال الشاعر وحياته .. وهو في هذا الاطار يدخل في مجموعة زهير الذي اكسبته التجارب تجربة ، وعلمته الحياة دروسها فكانت ابياته خالدة على الرغم من الامتداد الزمني البعيد)(٦٣١)

تحليل القصيدة

وقصيدة معن التي اخترناها خص معظم ابياتها للحديث عن ابن عم له وقف موقف المعادي له فهو يحاول اثارة غضبه واذلاله ، ويتمنى له الشر والاذى ، اما هو فيرى رأيا آخر انه يرى حق رعاية ذوي القربى واجبا فيقلم اظفار الحقد والضغن بالحلم والاناة ، وحسن التصرف ، واذا كان قريبه يتمنى له الاذى فانه يصفح عنه لانه اذا قابله بالاذى وسدد اليه سهام العداوة فانه سيؤذي نفسه واهله ، كما ان عفوه عن ابن عمه عفو قادر شجاع لاعفو ضعيف ذليل (الابيات من ١ - ٧) .

٧ - ١٣

ان ابن عم معن يشتمه في مغيبه ، ويأكل لحمه ، اما هو فانه يحفظ مجلس محضره ، ومغيبه ، ولا يشتمه ، والشاعر يرى وصل ذوي القربى واجبا عليه اما ابن عمه فلا يريد الا القطيعة ، وهنا تبدو حكمة الشاعر في ان قوة الاهل والعشيرة في اجتماعهم اما القطيعة فلا يعقبها الا السفاهة والاثم والفرقة . انه يصل رحم ابن عمه طاعة لله سبحانه وتنفيذا لاوامره (وبالوالدين احسانا وذي القربى واليتامى) سورة البقرة الآية ٨٣ ، ولولا هذا الحق لما عفا معن عن قريبه ، ولبادره بالسيف وانتقم منه ، لكن الاسلام والخلق العظيم يمنعانه من التهور ، اليس قتل ابن العم هدما لصلة القربى والعشيرة ذاتها ، الشاعر ينظر هنا الى القرابة وصلتها على انها بناء والبناء خير اما قاطع صلة الرحم فهو هادم وشتان مابين الباني والهادم ، هذا يطلب القوة وذاك يبتغي الفرقة .

٣ - ١٧

يعود معن مرة اخرى الى وصف سلوك ابن عمه بانه انانى يتمنى للشاعر الفقر والذل اما هو فلا يريد له الا الخير ، ابن عمه يتمنى له مصيبة تؤذيه وتنكبه ، وهل نكبة ابن العم او القريب الا اذى للجماعة والاهل !!

اذا تمنى ابن عم معن له الفقر فانه لن يلقى خيرا لان الشاعر يصف نفسه بالكرم ، ومن كانت يده فياضة معطاء فانه ينال الحمد والثناء اما البخيل - ابن عمه - فلن ينال الا الذم .

يصف الشاعر حكمته وحسن تدبيره للامور ، اذ انه حاول ان يكسب ودّ ابن عمه له وان يمنعه من ظلمه ، فابدى تعطفه ولينه له ، وحنا عليه كما تحنو الام على وليدها ، وخفض له جناح الرحمة (وهو في هذا متأثر بقوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا) سورة الاسراء الآية ٢٤ ، وانه كان يكظم غيظه ، لانه يعرف ان كظم الغيظ يسل البغضاء ويحد من غلواء المعتدي ، وهذا مافعله معن لانه استطاع بحسن تصرفه وطيب خلقه ان يستل ضغن ابن عمه وان يزرع في نفسه المودة ، وروح القرابة بدلا من العداوة والبغضاء وكأنه يدعو تطبيق الآية الكريمة (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) سورة آل عمران الآية ـ ١٣٤ .

وهكذا نجد قصيدة معن امتدادا للحكمة العربية الممتدة من التجارب الانسانية في حسن معاملة النفس الانسانية عامة والقريب خاصة ، مبينة اهمية القرابة في شد ازر المجتمع او القبيلة ، مستمدا من هذه الفكرة كل مايدعو اليه الاسلام من وجوب صلة الرحم او العفو عن الناس او نصرة الاخ اذا كان ظالما بمنعه عن الظلم كما اوصى الرسول (ﷺ) كل هذا اورده معن المزني فكان بحق شاعر الحكمة والدعوة الى صلة الرحم وحسن المعاملة في اشعاره .

محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

(الرسائل)

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

ب - الرسائل

اصبح من البديهي لدى الباحثين القول باهتمام الاسلام بصورة عامة والرسول بصورة خاصة بالكتابة ، واثر هذا الاهتمام في نشر الكتابة والتشجيع على تعليمها ، والحادثة المشهورة التي اشترط فيها الرسول (ﷺ) على اسرى بدر اطلاق سراح كل رجل يعرف الكتابة والقراءة ان يعلم عشرة من صبيان المدينة دون فداء ، هذه الحادثة تكفي للاشارة الى مدى اهتمام الرسول (ﷺ) بالكتابة ونشرها بين المسلمين .

وكان لحاجة الرسول (ﷺ) الى تدوين القرآن الكريم وحفظه من جهة ، ونظره البعيد الى حاجة دولته اليها من جهة اخرى . كل هذا جعل الرسول (ﷺ) يهتم بالكتابة لانها ستكون الاساس الذي تعتمد عليه دولته في مراسلاته ومباحثاته مع القبائل العربية ، والدول المجاورة التي بعث اليها وفوده يدعوهم الى الاسلام .

لقد كان لنشوء الدولة الاسلامية الاثر الكبير في تطوير الكتابة واستخدامها على نطاق رسمي ، والاستفادة منها في خدمة الدعوة الاسلامية بعد ان كانت محصورة في مجالات محددة وفي مناطق معينة في عصر ماقبل الاسلام وقد ذهب بعض الباحثين الى ان الكتابة قد استخدمت قبل هجرة الرسول (ﷺ) الى المدينة وقبل نشوء الدولة الاسلامية .

يقول الدكتور حسين محمد نصار(٦٩٤) وأحب ان اقول اني لااعني بذلك ان الرسائل والمعاهدات لم تظهر الا بعد تكون الدولة بل ظهرت اثناء تكونها وقبل تكونها ايضا حتى انهم يروون لنا ان الرسول (ﷺ) اتخذ شرحبيل بن حسنة كاتبا في مكة ، بل قالوا ان الداريين اتوا للرسول (ﷺ) وهو بمكة وطلبوا منه ان يقطعهم ارضا بالشام ان فتحها الله عليه ، فاقطعهم بيت عينون وحيرون والموطوم ، وبيت ابراهيم وكتب لهم بذلك كتابا في خط شرحبيل ولكننا نشك شكا قويا في صحة هذه الرواية ولانصدق الا الاقطاع الثاني الذي تم في السنة التاسعة بعد الهجرة وكتبه الامام علي بن ابي طالب بأمر الرسول (ﷺ) واحتفظ به الداريون وقتا طويلا ، اذ لم تكن الجماعة الاسلامية في مكة دولة من الدول لها كيان سياسي او نظام اداري ، ولم يكن الرسول (ﷺ) قد بدأ يفكر في جهاد الامم المجاورة للعرب حتى يقطع ارضا بها . وحتى في حالة عدم التصديق بصحة الاقطاع الاول فان الرواية نفسها تفيدنا بذكر اسم شرحبيل كاتبا للرسول (ﷺ) في مكة ونجد صدق ذلك في مجموعة الوثائق السياسية التي نشرها الدكتور حميد الله اذ

---

(٦٩٤) نشأة الكتابة الفنية : ٣٠

نجد فيها كتابا بعثه الانصار الى الرسول (ﷺ) حين انصرف اهل العقبة الاولى ، ونشا الاسلام في دور الانصار كتبوا فيه للرسول (ﷺ) : ان ابعث الينا رجلا يفقهنا في الدين ويقرئنا القرآن (٦٩٥) . كما ان هناك وثيقة اخرى كتبها الرسول (ﷺ) قبل هجرته ايضا وارسلها الى مصعب بن عمر لاقامة الجمعة في المدينة . هاتان الاشارتان وان افادتا في معرفة بدء الرسول (ﷺ) بالاستفادة من الكتابة فانها لاتعني ايضا انها قد استخدمت على نطاق واسع ، لان الحاجة اليها كانت محدودة نظرا لقلة الجماعة الاسلامية وقلة متطلباتها ولكن العامل الاكبر في اظهار الكتابة وبثها في الارجاء هو بزوغ الدولة العربية الاسلامية . فما لايخفى على احد ماتستلزمه الدول من علاقات . وروابط داخلية وخارجية لايمكن التعبير عنها والاتفاق عليها الا بالمراسلات.. وهكذا كان انشاء نظام المراسلات الداخلية والخارجية(٦٩٦) .

وحين هاجر الرسول (ﷺ) الى المدينة ، وهاجر معه اصحابه كان لابد له ان ينظم الحياة الجديدة في المدينة لتكون نواة دولة اسلامية كبيرة ، واراد ان يوطد النظام الذي يفرضه في المدينة ، وان يلزم كافة الاطراف به فكتب كتابا ضمنه تعاليمه فيما يخص العلاقة بين المهاجرين والانصار من جهة واليهود من جهة اخرى والزم في هذا الكتاب كل طرف بما له وماعليه من واجبات وحقوق وهكذا اتخذت الكتابة طابعا جديدا حين اصبحت اداة لتسجيل النظام الذي يسود مجتمع الدولة الجديدة (٦٩٧) .

وحين هاجر الرسول (ﷺ) بدأت قريش بمناوراتها السياسية فكان لابد للرسول (ﷺ) ان يتتبع اخبارها ويطلع على ماتعده من عدد لحرب المسلمين فكان ان بدأ بارسال السرايا التي تستطلع له اخبار قريش وتحركاتها وفي اخبار هذه السرايا انه (ﷺ) ارسل عبدالله بن جحش ونفرا من اصحابه ، وبعث معه كتابا وامره الاينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي الى ماامره ولايستكره احدا من اصحابه (٦٩٨) .

---

(٦٩٥) الوثائق السياسية : ١٠ ، وقد خرج الاستاذ حميدالله الرسائل التي ذكرها فليراجعها من يريد ان يتأكد من ورودها من مظان الكتب القديمة .

(٦٩٦) نشأة الكتابة ٣٢ .

(٦٩٧) مجموعة الوثائق السياسية ٢٠ .

(٦٩٨) السيرة ق١ / ٦٠١ الوثائق السياسية ٢٢ .

وفي اخبار غزوة الخندق ان المسلمين قبل ان يخوضوا غمارها بلغهم كتاب من ابي سفيان الى النبي (ﷺ) يفاوضه فيه قبل ان تبدأ الحرب ، ويعده بالقتال ان لم يستجب الى ماتريده قريش منه . وقد اجاب الرسول (ﷺ) بكتاب رد فيه على ابي سفيان . ثم كانت مكاتبة اخرى بين ابي سفيان والرسول وقت غزوة الخندق حين ملت قريش المقام فكتب ابو سفيان يهدد الرسول (ﷺ) بيوم مثل يوم احد ، ويجيبه الرسول بكتاب آخر يهدده بيوم تكسر فيه اللات والعزى واساف ونائلة (٦٩٩).

وفي السنة السادسة للهجرة كتب صلح الحديبية المشهور بين قريش والرسول (ﷺ) وقد اتفق فيه الفريقان على الصلح مدة عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ، كما نظمت فيه شروط اخرى يلتزم بها كل من المسلمين من جهة وقريش ومن حالفهم من جهة اخرى (٧٠٠) .

وبعد هذا الصلح اشتدت شوكة المسلمين ، وقويت دعائم دعوتهم مما بعث القوة والعزيمة في نفوسهم ففر رجل منهم اسمه ابو بصير من مكة ، والتحق برسول الله (ﷺ) فكتبت قريش الى الرسول (ﷺ) ليفي باحد شروط الحديبية الذي يقضي بان يرد الرسول (ﷺ) من يقدم عليه من مستضعفي مكة الى اصحابه من قريش .

فلما ورد الكتاب الى رسول الله (ﷺ) رد ابا بصير وارسله مع سفيري قريش حتى اذا كانوا بذي الحليفة قتل احدهما ثم خرج حتى نزل العيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قوافل قريش الذي يأخذونه الى الشام . وبلغ المسلمين الذين كانوا قد حبسوا بمكة قول رسول الله (ﷺ) عن ابي بصير (ويل امه محش حرب لو كان معه رجال) فخرجوا الى ابي بصير فاجتمع اليه مايقارب السبعين رجلا فضيقوا على قريش وجعلوا يقتلون من ظفروا به ، ويأخذون مامعه ، ولاتمر بهم عير الا اقتطعوها حتى كتبت قريش الى رسول الله (ﷺ) تطلب منه ان يأويهم لتتخلص من اذاهم فكتب رسول الله (ﷺ) الى ابي بصير بالمجيء الى المدينة فاتاه رسوله بكتابه وابو بصير يجود بنفسه ولم يلبث ان مات وقدم باقي اصحابه الى المدينة (٧٠١).

---

(٦٩٩) الوثائق السياسية ٢٢ .

(٧٠٠) السيرة ق٢/٣١٧ تاريخ الطبري ٣/٧٩ ، اعجاز القرآن ١٣٥ .

(٧٠١) الوثائق السياسية ٣٥ - ٣٦ وانظر الخبر في انساب الاشراف ١/٢١١ .

ومع ان نصوص هذه الكتب لم تصل الينا الا ان هذه الروايات تدلنا عليها وتشير الى مدى الاستفادة من الكتابة حين استعملت وسيلة للمفاوضات بين قريش والمسلمين . وكان من الطبيعي ان يتيح صلح الحديبية فرصة سانحة للرسول (ﷺ) لينشر دعوته في ارجاء بعيدة عن اجواء قريش ومكة ، وذلك انه اخذ يرسل الوفود الى الملوك والقبائل وبعث معهم بكتب يدعوهم فيها الى الاسلام فبعث دحية بن خليفة الكلبي الى قصر ملك الروم(٧٠٢) وبعث عبدالله بن حذافة السهمي الى كسرى ملك الفرس(٧٠٣) .

وكانت كتبه ووفوده قد توالتا على النجاشي من قبل حين ارسل اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام . وكذلك حين ارسل مع ابن عمه جعفر كتابا يوصيه بالاعتناء بحال اللاجئين الغرباء المسلمين في بلاده(٧٠٤) .

وقد بلغت كتبه الى الملوك من الكثرة درجة جعلته (ﷺ) يتخذ كتابا خاصين يكتبون رسائله الى الملوك ، وقد سجل الجهشياري قائمة باسماء كتاب الرسول (ﷺ) وواجباتهم فعلي وعثمان لكتابة الوحي فاذا غابا كتبه ابي بن كعب وزيد بن ثابت ، وخالد بن سعيد بن العاص ومعاوية لكتابة حوائجه والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير للكتابة مابين الناس وينوبان عن خالد ومعاوية اذا غابا ، وعبدالله بن الارقم والعلاء بن عقبة يكتبان في القوم في قبائلهم ومياههم ، وفي دور الانصار بين الرجال والنساء ، وزيد بن ثابت للكتابة الى الملوك الى جانب كتابة الوحي وحنظلة بن الربيع خليفة كل كاتب من كتاب النبي اذا غاب عن عمله ، وكان يضع عنده خاتمه ، وعبدالله بن ابي سرح ومعيقب بن ابي فاطمة وكان يكتب في المغانم(٧٠٥) .

اما في الداخل فقد استفاد الرسول (ﷺ) من الكتابة في خدمة دعوته ، وذلك انه اخذ يسعى لتوطيد دولته الصغيرة ليرسيها على قواعد ثابتة وقوية فيأمن اول مايأمن شر اليهود الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين ويحملون لهم الحقد والكراهية فاستخدم الرسول (ﷺ) الكتابة في هذا المجال ليوقفهم عند حدهم في حين شكى اليهود الى الرسول (ﷺ) قتل كعب بن الاشرف الذي نال المسلمين والرسول بهجائه اللاذع دعاهم الرسول (ﷺ) الى ان يكتب بينه

---

(٧٠٢) الاموال /٢٥ ، تاريخ الطبري ٨٧/٣ ، صحيح مسلم ١٦٠/٥ - ١٦٦ سنن ابي داود ٦٢٨/٢ .

(٧٠٣) الوثائق السياسية ٤٢ فما بعدها .

(٧٠٤) نفسه .

(٧٠٥) الوزراء والكتاب ١٣ ، ١٣ .

وبينهم كتابا . كما كان الرسول (ﷺ) يكتب اليهم كتبا يدعوهم فيها الى الاسلام . وحين قتل رجل من المسلمين في احد احياء اليهود كتب اليهم الرسول (ﷺ) طالبا ديته او يؤذنهم بالحرب ، فكتبوا اليه يحلفون بالله ماقتلوه ، ولايعلمون له قاتلا ، فاداه الرسول من عنده وهكذا استخدمت الكتابة وسيلة للمفاوضة بين المسلمين واليهود كما استخدمت وسيلة للمفاوضات بين المشركين والمسلمين .

وهناك كتب الامان والصلح التي كتبها الرسول (ﷺ) لبعض اليهود او النصارى(٧٠٦) ، من ذلك كتابه لاهل نجران حين قدموا عليه وسألوه الصلح فكتب اليهم كتابا بان لهم جوار الله وذمة محمد ابدا ، مانصحوا وصلحوا ، ثم ذكر في الكتاب حدود هذا الصلح وشروطه(٧٠٧) وكذلك كتب النبي لبني عادياء من يهود تيماء كتابا بان لهم الذمة وعليهم الجزية (٧٠٨).

وكانت وفود القبائل العربية تترى على رسول الله (ﷺ) تعلن اسلامها فكان يبعث مع هؤلاء الوفود برسائل يشرح في بعضها اركان دينه ، ويسجل في بعضها الاخر انه كلف احد اعضاء الوفد بمهمة اخذ الزكاة من قبيلته او مهمة تعليمهم امور دينهم . اما القبائل التي لم ترسل وفودها فانه بعد ان استتب له الامر ارسل كتبه اليها ودعاها الى الاسلام والهداية ودفع الزكاة (٧٠٩) .

وقد يرسل الرسول (ﷺ) احد رجاله عاملا على منطقة من المناطق فيكتب له عهدا يبين له فيه واجبه .

وفي اخبار احداث الردة التي بدأت منذ زمن الرسول (ﷺ) نجد للكتابة دورا هاما شغلت فيه دور الوسيط بين الرسول (ﷺ) وعماله وقادته من جهة وقادة المرتدين من جهة اخرى (٧١٠).

---

(٧٠٦) الوثائق السياسية ٣٩ .

(٧٠٧) فتوح البلدان ق٦/١ الوثائق ١١٥/١١٠ ، ١١٦ .

(٧٠٨) الوثائق ٤١ .

(٧٠٩) السيرة ق٥٩٨/٢ ، فتوح ٨٢/١ ، الوثائق ١٨١ .

(٧١٠) السيرة ٩٦/٢ الوثائق ٢٥٥ فما بعدها .

ثم كانت مكاتبة مسيلمة الكذاب مع الرسول (ﷺ) حين طلب منه ان يقاسمه الحكم لانه كا ادعى قد اشرك معه في النبوة(٧١١)

وهكذا ادت الكتابة دورها الهام في توطيد الدولة الاسلامية منذ نشأتها حتى استقرار الامر ، فكانت وسيلة من وسائل نشر الدعوة وارساء قواعد الدين الجديد ويزاد الى هذا مجال اخر استفيد فيه من الكتابة حين سجل الرسول بها الاقطاعات والعطاءات التي منحها بعض الاشخاص والقبائل .

وبعد وفاة الرسول (ﷺ) وجدت للكتابة مجالات جديدة واحداث استوجبت المراسلة ننشطت في هذا العهد ، واتسعت لابواب واغراض كثيرة كما هو الحال في الخطابة . وكان من اول الاحداث التي نشطت الكتابة واوجبت استعمالها حروب الردة ، وذلك انه لما توفي الرسول (ﷺ) ارتدت قبائل كثيرة من العرب ووجد ايمانها الضعيف متنفسا في فقدان الرسول (ﷺ) وموته وقدمت الكتب الى المدينة تنبوء بعصيان القبائل وخروجها على الدين . فعقد ابو بكر احد عشر لواءاً وأمر امير كل جند باستنفار من مر به من المسلمين من اهل القوة . وقد عهد لكل من هؤلاء الامراء عهدا ضمنه وصايا وتعاليم حربية يلتزم بها الامير حين يحارب المرتدين ، وتكون هذه التعاليم فاصلا بين قتال المرتدين او مسالمتهم(٧١٢) . كما كتب كتبا اخرى الى قبائل معينة ، من ذلك كتابه الذي بعثه مع خالد بن الوليد الى بني اسد ومن تبعهم من المرتدين ، وكتبا اخرى الى المرتدين جميعا يأمرهم فيها بتقوى الله وان يهتدوا بهداه . ويعتصموا بدينه ، وان لايغرهم الشيطان بعد ان هداهم الله وقد ختم كتابه بتهديده لهم بالقتال والتحريق وسبي النساء(٧١٣) .

وكان الخليفة يتتبع اخبار الحروب ومن اسلم من المرتدين او بقي على عصيانه وردته ، فكان يكتب الى امراء الجيش بتعاليم واوامر عسكرية ويضمنها تعاليم حربية ونصائح عامة (٧١٤) .

---

(٧١١) الوثائق ٢٦٣ ، تاريخ الطبري حوادث ١١ هـ .

(٧١٢) الوثائق ٢٦٣ ، تاريخ الطبري حوادث ١١ هـ .

(٧١٣) نفسه ٢٦٢ ، صبح الاعشى ٣٨٤/٢ - ٣٨٥ .

(٧١٤) نفسه ٢٦٨ .

وحين يصالح القائد القبيلة التي كانت مرتدة فانه كان يكتب لهم امانا وعهدا يسجل فيه الصلح . اما اذا ساء سلوك احد القادة فان جنود جيشه من المسلمين يكتبون الى الخليفة بذلك ويكتب الخليفة بدوره الى قائده يؤنبه ويحاسبه على فعلته .

ثم كانت مكاتبات ابي بكر في حروب من ارتد من بني كندة مع الاشعث بن قيس ومن ارتد معه . وكتب الى امير جيشه زياد بن ابيه وكان الاخير يكتب اليه انباء المعارك ، ويطلب منه المزيد من الامداد .

وانتهت حروب الردة ، وطويت معها صفحة دامية كبدت المسلمين الكثير من الخسائر في الاموال والارواح . وبدأت بعدها صفحة جديدة خط فيها المسلمون اتجاهات جديدة ، لاتساع دولتهم وبناء صرحها الشامخ تلك هي حركة الفتوحات الاسلامية . فحين فرغ خالد بن الوليد من امر اليمامة كتب اليه ابو بكر (ان سر الى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند - وهي الابلة - وتآلف اهل فارس ، ومن كان في ملكهم من الامم) . وكتب كتابا آخر الى عامة المسلمين الذين انضووا في الجيش لحرب المرتدين يحثهم فيه على الجهاد والتوجه لحرب الفرس ونشر كلمة الله ، واعلاء دينه ، ويذكرهم بالثواب الذي اعده الله للمجاهدين المؤمنين ثم كتب كتابا اخر الى المثنى بن حارثة يخبره بامر الجيوش الاسلامية المتوجهة الى العراق ويأمره ان يستقبل خالدا ومن معه وان يكون خالد هو الامير فان شخص فالمثنى على ماكان عليه من الامارة .

وكان لابد من ان تستنفر القوى كافة لتنضوي تحت لواء الجهاد والفتح وقد استفيد من الكتابة لتكون وسيلة لتجميع القبائل ، واصدار الاوامر . فقد كتب ابو بكر الى عياض بن غنم وهو بين النباح والحجاز يأمره بالمسير الى العراق واللحاق بخالد كما يوصيه بان لايكره احدا على القتال ، ولايستفتي هو وخالد ، بمتكاره للحرب والجهاد (٧١٥).

وكان ابو بكر يضمن كتبه الى قادته وصايا وتعاليم حربية فيوصي بعدم استعمال ضعيفي الايمان . وعدم اجبار الناس واخذهم بالقوة للانضمام تحت راية الفتوح ، كما كان يوصيهم بعدم استعمال من ارتد من القبائل (٧١٦).

---

(٧١٥) تاريخ الطبري ٤/٢ ، فتوح ق٢ / ٢٩٥ .

(٧١٦) فتوح الشام ٢٤/١ .

ولما كانت انباء الفتوح تتوالى على الخليفة فانه يبعث بتعاليمه واوامره العسكرية الى قادة جيوشه ، والى المسلمين كافة وحين اراد ابو بكر ان يولي خالد بن الوليد امارة جيش المسلمين في فتوح الشام اصدر اوامره بالكتب بعثها الى كل من خالد وهو في العراق يأمره بالسير الى الشام والى ابي عبيدة في الشام (٧١٧).

يضاف الى الاوامر العسكرية التي كان الخليفة يصدرها بواسطة الكتب ، فانه قد استفاد من الكتابة ايضا بارسال نصائح وتعاليم حربية خاصة حين يكتب اليه احد القادة شارحا وضع المسلمين ، وماتاهم من اخبار اعدائهم الروم او الفرس ، فيدرس الخليفة مايعرض عليه ثم يكتب الى القائد بخطة عسكرية يأمره باتباعها وقد يجد القائد نفسه امام مشكلة وامر لم يكن يتوقعه فيكتب الى الخليفة يطلب رأيه (٧١٨).

وهكذا نجد ان الكتابة كانت عاملا اساسيا يعتمد عليه القادة في فتوحهم اذ يستعينون بالخليفة في خططهم وتصرفاتهم بواسطة كتبهم المتتالية . وللمرء ان يتعجب غاية الاعجاب من اهتمام العرب بالكتابة ومدى تطورها في العصر الاسلامي حتى استفيد منها في اكثر شؤون الدولة اذا تذكرنا صعوبة المواصلات ، والرسائل التي تبلغ بها الرسائل ومع ذلك فقد اكثروا منها وراسل القادة الخليفة في كل امر من امورهم ، ونجد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي) يطلب من قائده في احدى رسائله ان يكتب اليه كل يوم (٧١٩)، ومثل ذلك ماذكر من وصية الامام على (ع) لاثنين من رجاله ولاهما امارة جيشه ، كتب اليهما وهما في طريقهما الى الحرب عدة وصايا ، وختم رسالته بقوله وليكن كل يوم عندي خبر كما ورسول من قبلكما (٧٢٠) مما يدل على ان اخبار الحروب كانت تتوالى على الخليفة .

وكان من خطة المسلمين ان يراسلوا اهل المدن قبل الدخول معهم في حرب ، وحين يأتي الجواب بامزار الجزية يكتب لهم عهد بالامان (٧٢١).

---

(٧١٧) تاريخ الطبري ٢٠٥/٤ ، الفخري ٥٤ .

(٧١٨) تاريخ الطبري ٦٣/٤ وانظر فتوح الشام ١٨٠ ، تاريخ دمشق ٥٣٠/١ .

(٧١٩) تاريخ الطبري ٩٢/٤ ، فتوح الشام ٢٢/٢ .

(٧٢٠) شرح نهج البلاغة ٢٨٥/١ .

(٧٢١) تاريخ الطبري ٣/٤ ـ ١٧ ، فتوح البلدان ق٢٢٩/٢ .

واذا اشتدت الحروب وصعب امرها على المسلمين والمقاتلين فان القائد يكتب الى الخليفة بالخبر فيجيبه الاخير بدوره بكتاب يشد فيه ازره ، ويعده والمسلمين بنصر الله ، وعدم خذلانه للمؤمنين المتقين . ومن الطبيعي بعد ذلك ان يسرع البريد الى الخليفة يحمل له بشارة النصر والفتح . وقد يكتب بعدها القائد ليستشير الخليفة في كيفية توزيع الغنائم .

واستمرت الفتوحات في العصر الاموي الا انها كانت في اوقات متقطعة متباعدة لذلك كانت رسائل هذا العصر فيما يخص الفتح اقل منها في صدر الاسلام ولعل سبب ذلك ان قادة الحروب في العصر الاموي كانوا يراسلون والي المصر الذي خرجوا منه ، وهذا بدوره يبعث باخبار الفتوح الى الخليفة في دمشق مما يؤدي حتما الى تأخير الرسائل او ربما الى تعمد الوالي تأخيرها وانتظار نهاية الفتوح واخبار الخليفة بالنصر الاخير .

ومع ذلك بلغتنا رسائل استدعتها الفتوحات ، من ذلك مااستمر عليه المسلمون في الفتوح من مكاتبة اهل المدينة المفتوحة قبل دخولها ودعوتهم الى الاسلام او قبول دفع الجزية ثم عهد القائد لهم كمراسلة حبيب بن مسلمة مع اهل تفليس ثم كتابته العهد لهم .

واجتمع الخوارج مرة اخرى في زمن معاوية وولوا عليهم المستورد بن علفة التيمي وبايعوه فبلغ خبرهم المغيرة بن شعبة ، وكان واليا على الكوفة فحذر اهل الكوفة ايواءهم ونصرتهم فخرجوا منها فوجه في اثرهم معقل بن قيس . وسار الخوارج حتى بلغوا المدائن وكتبوا الى عاملها لينضم اليهم ويحارب اهل الشام الا ان معقلا لحق بهم ودارت بينهما حرب شديدة انتهت بمقتل معظم الخوارج وهروب الباقين منهم .

ويذكر مع المكاتبات التي تجري بين قادة الخوارج وقادة الدولة الاسلامية ماكتبوه من مراسلات بعضهم بعضا (٧٢٢) او انهم كانوا يكتبون الى بعض الصحابة يسألونهم عن امر من الامور فبعد ان استقر ابن الزبير بمكة خرج الخوارج منها ، واتجهوا الى الاحواز حيث امروا عليهم نافع بن الازرق ثم وقع خلاف بينهم فنفرت جماعة منهم بزعامة نجدة بن عامر ومضوا الى اليمامة ومن هنا كتب نجدة الى نافع يؤنبه على خروجه على الجماعة ويزجره عما يقوم به من اعمال فيجيبه نافع بكتاب اخر ينقد فيه ماجاء في رسالة نجدة . وكتب رسالة اخرى الى ابن عباس يسأله عن سهم ذوي القربى فيجيبه ابن عباس عن ذلك بكتاب ايضا (٧٢٣) .

---

(٧٢٢) مروج الذهب ١٣٨/٢ .

(٧٢٣) الكامل للمبرد ٢٨٩/٣ - ٢٩٠ .

ولما اشتدت شوكة الخوارج بالاحواز خشي اهل البصرة ان يجتاحوا مدينتهم فهبوا لنصرتها ، واتفق رأيهم على انه ليس لهذا الامر الا المهلب بن ابي صفرة فكتبوا له كتابا . وهو في طريقه الى خراسان على لسان ابن الزبير فنهض لقتال الخوارج معتقدا انه من ابن الزبير فدخل الاحواز وتوالت انتصاراته عليهم وكان يكتب بذلك الى امير البصرة يخبره بالنصر . ولم يزل المهلب محاربا للخوارج حتى ولي امر البصرة مصعب بن الزبير فولى امر قتال الخوارج لعمر بن عبيدالله بن معمر فزحف اليهم وقاتلهم قتالا شديدا حتى تمت هزيمتهم وخذلانهم فكتب الى مصعب يخبره بذلك (٧٢٤) . وكانت للكتابة اهميتها في حركة الزبيريين (٧٢٥) .

وقد كان بعض المسلمين يتطوع بالكتابة الى خليفة المسلمين ينصحه ويذكره بنعم الله لمن اتقى واصلح وكأنهم بذلك يؤدون واجبا ملقى عليهم ، وهو واجب نصح المسلم حق وان كان خليفة للمسلمين (٧٢٦) . وقد يكتب الخليفة الى امرائه وقادته بنصائح وتعاليم تعينهم في ادارتهم وولايتهم (٧٢٧) .

اما مكاتبات الولاة مع الخليفة في شؤون اماراتهم فقد كانت كثيرة ومتنوعة من ذلك ان عمرو بن العاص حين فتح الاسكندرية هم ان يسكنها فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك ، فسأل عمر الرسول ماذا كان الماء يحول بينه وبين المسلمين ، اذ سكنوا الاسكندرية فقال : نعم ياامير المؤمنين اذا جرى النيل ، فكتب الى عمرو اني لااحب ان تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولاصيف .

---

(٧٢٤) الخراج / ٢٠

(٧٢٥) انظر انساب الاشراف ق٤/٧ ، ج٥/٢٢٩ الاخبار الطوال ٢٨٧

(٧٢٦) انظر مثلا ماكتبه ابو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى الخليفة عمر بن الخطاب عند توليه الخلافة في البيان والتبيين ٣٣٥/٣ .

(٧٢٧) انظر رسالة الخليفة عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري في البيان والتبيين ٤٧٢ ، الخراج ١١٧ .

لقد كان اهتمام المسؤولين بامور المسلمين كبيرا وكان الوالي او الخليفة يعد نفسه مسؤولا تجاه ربه عن امر المسلمين وراحتهم ، فحذيفة بن اليمان مثلا يكتب الى الخليفة وكان مع سعد بن ابي وقاص في العراق كتاب يخبره فيه عن امر المسلمين والعرب وانهم قد تغيرت الوانهم فكتب عمر الى سعد يستفسر عن ذلك ، فكتب اليه سعد ان العرب لايوافقها الا ماوافق ابلها من البلدان فابعث سلمان وحذيفة ليرتادا للمسلمين منزلا بريا بحريا ، واشترط ان لايفصل بين المسلمين والخليفة ماء . فارتاد الرائدان الكوفة للمسلمين وكتب سعد بذلك الى الخليفة .

نصوص وتحليل

ان تتبع نصوص الرسائل لمعرفة تطور الكتابة يفرض الاستفادة من اكثر من نص واحد لمتابعة هذا التطور ومعرفة سماته التي نستطيع ايجازها فيما يأتي :

١ ـ الايجاز المعبر عن الفكرة والموقف بالفاظ مباشرة قصد منها الافهام والتبليغ ولذلك وردت الالفاظ الاسلامية المصورة لمبادئ الدين والدعوة في نصوص رسائل الرسول (ﷺ) المبكرة ، من ذلك ماكتبه عليه الصلاة والسلام الى مصعب بن عمير قبل الهجرة يأمره في الرسالة باقامة الجمعة في المدينة فيقول له :

(فاذا مال النهار عن شطره من يوم الجمعة فتقربوا الى الله بركعتين(٧٢٨) .

فالكتاب حدد مباشرة ماهو مطلوب ، وقت اقامة الصلاة يوم الجمعة ، ويشير الى هيأة المصلي لان الركوع في اللغة هو الانحناء الا انه بعد ظهور الاسلام دلّ على حركة معينة معلومة يؤديها المسلم وهي انحناؤه خضوعا لله في صلاته .

وتتكرر مثل هذه الالفاظ في رسائل الرسول (ﷺ) الاخرى وكتبه بعد الهجرة خاصة في في كتابه الذي نظم فيه الحياة في يثرب (المدينة) واقر فيه الصلات التي تربط المسلمين بأهل الكتاب من سكانها فورد فيه لفظ المشرك ، والمسلم ، والمتقين والكافرين ويوم القيامة واليوم الاخر :

٢ ـ ابتداء الرسائل والكتب بعبارة البسملة وهذه سمة فنية وفكرية ميزت رسائل هذا العصر عن عصر ماقبل الاسلام ونستطيع ان نتابع تطور هذه الفكرة من عهد الرسول (ﷺ) الذي ذكرناه قبل قليل والذي ورد فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم انهم امة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رباعتهم يتعاقلون بينهم(٧٢٩)) .

ويلاحظ في هذا الكتاب ابتداؤه بعبارة البسملة وهي افتتاحية لم تكن موجودة في مكاتبات عصر ماقبل الاسلام ويروى القلقشندي قصة يذكر انها كانت السبب في تعود قريش على افتتاح رسائلها بهذه العبارة . ثم ينقل قولا عن ابراهيم بن محمد الشيباني

---

(٧٢٨) الوثائق السياسية ١١

(٧٢٩) مجموعة الوثائق السياسية ٢٠

قوله ولم تزل الكتب تفتتح باسمك اللهم حتى نزل قوله تعالى . انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم فاستفتح بها رسول الله (ﷺ) وصارت سنة بعده ، ويروى عن محمد بن سعد رواية تبين كيفية تطور هذه العبارة بتدرج نزول الآيات القرانية وذلك أن رسول الله كان يكتب كما تكتب قريش (باسمك اللهم) حتى نزل عليه (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها) فكتب بسم الله حتى نزل قل ادعوا الله او ادعوا الرحمن) فكتب بنتم الله الرحمن حتى نزل (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) فكتب بسم الله الرحمن الرحيم(٧٣٠).

وقد كان لالتزام الرسول (ﷺ) بهذه العبارة الاسلامية اثره الكبير في التزام المسلمين بها من بعده حتى رووا عن سفيان الثوري انه كان يكره للرجل ان يكتب شيئا حتى يكتب بسم الله الرحمن الرحيم . وعن سعيد بن جبير انه كان يقول لايصلح كتاب الا ان يكون اوله بسم الله الرحمن الرحيم(٧٣١) الا انهم قد اصطلحوا على حذف هذه العبارة من اوائل التوقيعات والمراسيم الصغار ، وكأنهم قد تأولوا مانسب الى رسول الله (ﷺ) من قول هو (كل امر ذي بال لايبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو اقطع) ، يعني ناقص البركة ومايكتب من التواقيع والمراسيم الصغار ليس من الامور المهمة فتناسب ترك البسملة في اولها وان وجد من يؤكد ضرورة افتتاحها بهذه العبارة ايضا(٧٣٢).

وعبارة البسملة هذه افتتح بها الرسول (ﷺ) اول كتاب له في المدينة المنورة وردت في كتبه ورسائله الاخرى الاكتاب صلح الحديبية الذي خلا من هذه العبارة وسنأتي على بيان سبب ذلك .

٢ ـ ذكر حمدالله والثناء عليه بعد البسملة . وهذه ايضا سمة فنية فكرية ارتبطت بفكرة التوحيد ايضا ووجوب ذكر الله وحمده وشكره وقد ورد التحميد في كتابه (ﷺ) الى النجاشي ملك الحبشة سنة ست للهجرة : (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشي ملك الحبشة اسلم فانت فاني ، احمد اليك الله الذي لااله الاهو الملك القدوس السلام المؤمن المهين ، واشهد ان عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته القاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة(٧٣٣).

---

(٧٣٠) السيرة ق٢/٣١٧ ، الطبري ٣/٧٨ ، اعجاز القرآن ١٣٥ ، الوثائق ٢٠ .

(٧٣١) (٧٣٢) صبح الاعشى ٦/٢٢٠

(٧٣٣) نفسه ٤٦

كما ورد التحميد في رسائله (ﷺ) عليه وسلم) الى المنذر بن ساوى والى اسقف ايلة . والى صاحب البحرين ، والى اهل هجر والى الحارث بن كلال ، وفي عهوده الى خزاعة والى بني اسد والى بني زاكان وعهده لاقارب سلمان ، وفي رسالته الى معاذ بن جبل(٧٣٤) .

ويبدو التحميد في هذه الرسائل متشابها من حيث العبارات التقليدية نفسها وهو تحميد قصير لايتجاوز العبارتين او الثلاث الا عهده الى اقارب سلمان الذي جاء فيه :

سلام الله اليك ان الله امرني ان اقول لااله الاالله وحده لاشريك له ، اقولها وامر الناس بها ، الخلق خلق الله والامر كله لله ، خلقهم واحياهم واماتهم ثم ينشرهم واليه المصير . وكل امر يزول ويفنى وكل نفس ذائقة الموت ولامرد لامر الله ولانقصان لسلطانه ، ولانهاية لعظمته ولاشريك له في ملكه سبحانه مالك السموات والارض الذي يقلب الامور كما يريد ويزيد الخلق على مايشاء سبحان الذي لاتحيط به صفة القائلين ، ولايبلغ وهم المتفكرين الذي افتتح بالحمد كتابه ، وجعل له ذكرا ورضي من عباده شكرا احمده حمدا لايحصى عدده .

اما كتبه الاخرى فهي على كثرتها لم يرد التحميد فيها كما لم ترد البسملة في كثير منها . وقد روى المحدثون حديثا عن الرسول (ﷺ) ليؤكدوا كون التحميد في اوائل الكتب سنة واجبة من جهة وليسوغوا خلو بعض الرسائل منها وخاصة رسائل الرسول (ﷺ) وبعض المكاتبات والحديث هو (كل امر ذي بال لايبدأ فيه بحمد الله فهو اجذم)(٧٣٥) ويعلل القلقشندي هذا بقوله : (اما سائر المكاتبات والولايات المفتتحة بغير الحمد ، فانما حذف منها الحمد استصغاراً لشأنها اذ كان الابتداء بالحمد انما يكون في امر له بال كما دل عليه الحديث المتقدم(٧٣٦)) ثم يذكر سبب ابتداء الناس بالتحميد بقوله (وانما افتتح الكلام بالحمد لان النفوس تتشوق بالثناء على الله تعالى ، والافتتاح مما تتشوق النفوس اليه مطلوب)(٧٣٧) ويبدو ان سبب ابتداء الكتاب بالحمدله ليس ماذكره القلقشندي وانما لانهم يتبعون في ذلك ماأتبعه الرسول (ﷺ)(٧٣٨) .

---

(٧٣٤) نفسه ومابعدها

(٧٣٥) سبح الاعشى ٦/٢٢٥ .

(٧٣٦) نفسه

(٧٣٧) نفسه

(٧٣٨) انظر اثر القرآن في الادب ٣٠٢ .

اما في كتاب صلح الحديبية ، فاننا لانجد اي اثر للسمتين الفنيتين السابقتين اذ لم يفتتح الكتاب بالبسملة ولامهد له بحمد الله ، لان رجال قريش كانو حريصين على عدم ذكر اي لفظ اسلامي لانه لو ذكر لكان دليلا على اعتراف قريش بما يدعو اليه الرسول (ﷺ) . ومما يذكر هنا ان الرسول (ﷺ) لما امر كاتبه علي بن ابي طالب ان يبدأ الكتاب بقوله بسم الله الرحمن الرحيم قال سهيل بن عمرو وهو الذي بعثته قريش لطلب الصلح - لااعرف هذا ، ولكن باسمك اللهم كما كنت تكتب ، فقال المسلمون والله لانكتب الا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي (ﷺ) اكتب باسمك اللهم فكتبها ثم قال ، هذا ماصالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو فقال سهيل : والله لو كنا نعلم انك رسول ماصددناك عن البيت ولاقاتلناك ، ولكن اكتب من محمد بن عبدالله . فقال (ﷺ) وسلم اني لرسول الله ، وان كذبتموني ، ثم قال لعلي كرم الله وجهه امح رسول الله . فقال والله لاامحوك ابدا فقال ارنيه فاراه اياه ، فمحاه الرسول (ﷺ) بيده وقال :

اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين(٧٣٩).

وكان صلح الحديبية خاليا من الاثر القرآني والاسلامي لان هم الرسول (ﷺ) ونظره البعيد كان يرنو الى مدة طويلة تمكنه من كسب القبائل العربية كما تسمح باقامة دولته دون ان تهددها قريش بالحرب والقتال .

٤ - كثرة الاقتباس من القرآن الكريم وايراد الايات المباركة المعبرة عن الموقف المعززة للفكرة التي تتزم عليها الرسالة وقد ورد هذا منذ وقت مبكر في الرسائل التي تبادلها الرسول (ﷺ) مع اليهود او النصارى . من ذلك كتابه الى يهود خيبر يدعوهم فيه الى الايمان به ، اذ كان خبر مجيئه نبيا قد ذكر في التوراة وفي هذه الرسالة نجد اكثر من آية قرآنية لانه (ﷺ) يريد ان يكسب ود اليهود حين يذكر نبيهم من جهة ويؤثر في نفوسهم فيؤمنوا به من جهة اخرى :

من محمد رسول الله صاحب موسى واخيه المصدق لما جاء به . الا ان الله قال لكم يامعشر اهل التوراة ، وانكم لتجدون ذلك في كتابكم ، محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا . سيماهم في وجوههم من اثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه فازره فاستغلظ فاستوى

---

(٧٣٩) السيرة ق٢/٣١٧ ، الطبري ٣/٧٦ اعجاز القرآن ١٣٥ .

على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما .

واني انشدكم بالله ، وانشدكم بما انزل عليكم بالذي اطعم من كان قبلكم من اسباطكم المن والسلوى ، وانشدكم بالذي ايبس البحر لابائكم حتى انجاكم من فرعون وعمله الا اخبرتموني ، هل تجدون فيما انزل الله عليكم ان تؤمنوا بمحمد ؟ فان كنتم لاتجدون ذلك في كتابكم فلاكره عليكم قد تبين الرشد من الغي واني ادعوكم الى الله ونبيه) (٧٤٠).

فقوله محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار ... وهو من الايات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من سورة الفتح ٤٨ وقوله (ﷺ) قد تبين الرشد . هو من الاية ٢٠٦ من سورة البقرة (لااكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) .

وهكذا ذكر الرسول (ﷺ) هذه الايات والمعاني القرآنية ، التي تنص على اعتراف القرآن الكريم بالنبي موسى عليه السلام ، ومايدور حوله من قصص ليدفع اليهود الى الاعتراف بالاسلام الذي يخبرهم عن انباء نبيهم .

٥ ـ تصوير الرسائل المستوى الفكري المتفتح الذي بلغه الفكر العربي الاسلامي من خلال ماتعرضه من محاججة ومحاولة للاقناع اعتمد البرهان والحجة في عرض الفكرة باسلوب واضح بليغ ، ويصدق هذا على معظم النصوص الكتابية في هذا العصر ، فالرسول (ﷺ) يحاجج اهل الكتاب من يهود او نصارى في مكاتباته ورسائله مستعينا بالايات القرآنية التي تلزم اهل الكتاب بالاقتناع بالدعوة الاسلامية لانها تبين ان الاسلام متمم لرسائل الانبياء السابقين ومعترف بدعوة ابراهيم ، وموسى وعيسى عليهم السلام الا ان رسائل الرسول (ﷺ) الى المشركين قد خلت من الاقناع لان موقف المشركين لم تكن قائمة على اقتناع بفكرة معينة او دين سابق قدر اعتمادهم المصالح الشخصية ، والعناد في رفض الدعوة ، ولذلك تجد خطاب الرسول (ﷺ) لهم مباشراً خاليا من البسملة والتحميد لانهم لايؤمنون بها ، مكتفيا بعبارة (سلام على من اتبع الهدى) .

ويزداد تصوير الكتابة للنقاش الفكري حين ترسخ الدولة العربية الاسلامية ويبدأ الحوار بين الجماعات الاسلامية الذي اتخذ احيانا شكل الحوار الكتابي واحيانا اخرى تجاوزه الى الاحداث السياسية المعلومة ... ونظرة سريعة الى المراسلات التي كانت بين الامام الحسين بن

---

(٧٤٠) الوثائق : ١٨

علي ويزيد بن معاوية تدلنا عن استيعاب الرسائل لهذه الاحداث وتصويرها لآراء اصحاب المواقف السياسية وبيان حججهم من خلالها .

لقد كانت الرسائل مسهمة في الاحداث متابعة لها ، استخدمها القادة والخلفاء والولاة والأشخاص ، ومن يرجع الى كتب التاريخ والادب يجد ثروة هائلة من الرسائل المحبرة في كل حدث من الاحداث المهمة . نجد في بعضها عرضا لافكار اصحابها كما نجد في بعضها الاخر دعوة الى المناقشة والمحاججة ونجد هذا واضحا في الرسائل السياسية المتبادلة بين الخلافة والخارجين عليها كما نجدها بين رجال الفرقة الواحدة احيانا فهذا نجدة بن عامر يناقش نافع بن الازرق فيمن يحق عليه الجهاد ، ثم فيمن يستحل دمه من الناس كاطفال المسلمين الذين عدهم الخوارج كافرين قال مخاطبا نافعا :

تجرد لـــك الشيطـــان ولم يكن احـــد اثقـل عليـــه وطـــأة منـــك ومن اصحابه ، فاستمالك واستهواك واستغواك ، واغواك ففويت فكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قعدة المسلمين وضعفتهم فقال جل شأنه وقوله الحق ، ووعده الصدق ليس على الضعفاء ولاعلى المرضى ولاعلى الذين لايجدون ماينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ثم سماهم احسن الاسماء فقال (ماعلى المحسنين من سبيل) ثم استحللت قتل الاطفال وقد نهى رسول الله (ﷺ) عن قتلهم وقال الله عز ذكره ولاتزر وزرة اخرى (٧٤١).

فيجيبه نافع بكتاب يرد به على اراء نجدة بآية كريمة قبل بدء نقاشه معه فيقول وأنا اسأل الله جل وعز ان يجعلني من الذين (يسمعون القول فيتبعون احسنه) وعبت عليّ مادنت به من انكار القعدة ، وقتل الاطفال واستحلال الامانة فسأفسر لك ذلك ان شاء الله (٧٤٢).

فقوله الذين يستمعون .. هو من الاية ١٨ من سورة الزمر . ثم يبدأ نقاشه حول القاعدين عن الجهاد لضعفهم او كبرهم فيقول :

وهؤلاء قد تفقهوا في الدين وقرأوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح . وقد عرفت ماقال الله عز وجل فيمن كان مثلهم اذ (قالوا كنا مستضعفين في الارض) فقيل لهم (الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا منها) وقال (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) وقال (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم) فانظر الى اسمائهم وسماتهم .

---

(٧٤١) شرح ابن ابي الحديد ٣٩٦:١

(٧٤٢) نفسه ٣٨٣/٢ العقد ٣٩٦/١

واما امر الاطفال فان نبي الله نوحا عليه السلام كان اعلم بالله يانجدة مني ومنك فقال :
(رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا الا فاجرا كفارا) فسماهم بالكفار وهم اطفال وقبل ان يولدوا فكيف كان ذلك في قوم نوح ، ولانقول كقوله في قومنا ، والله يقول (اكفارهم خيرا من اولئكم ، ام لكم براءة في الزبر) وهؤلاء كمشركي العرب لاتقبل منهم جزية .

ان هذا التطور الكبير الذي شهدته الحياة العربية الاسلامية قد واكبته الكتابة والرسائل فنشطت نشاطا كبيرا لايمكن ان يقارن بما كان في عصر ماقبل الاسلام واذا كانت الرسائل تمثل جانبا مهما من جوانب الحياة السياسية والادارية وان لغتها قد تكون اقرب الى اللغة الرسمية منها الى اللغة الادبية فان تذكر حال اللغة العربية في هذا العصر يجعلنا نقول ان كتب صدر الاسلام والمراسلات في العصر الاموي لابد ان تدرج ضمن الكتابات الادبية لانها صدرت عن شخصيات عرفت في عالم الادب والبلاغة ، وان اصحابها يدرجون بشكل او بآخر ضمن عصر الفصاحة والسلامة اللغوية ولابد ايضا ان تكون كتاباتهم صورة للمستوى الثقافي والفكري الذي وصلت اليه الحياة الادبية بالذات . ولذلك تنوعت اساليب الرسائل فهي بين ايجاز معبر واسهاب يسهم في عرض فكرة او مناقشتها ولغتها الى السهل الممتنع منه الى الصنعة التي اولع بها الكتاب الرسميون في العصر العباسي فيما بعد وماوجد فيها من توشيح للايات الكريمة او الامثال او الاشعار فانما يرد عفو الخاطر شأنهم في ذلك شأن خطبهم ووصاياهم .